الإسلام الأصولي

في وسائل الإعلام الغربيّة من وجهة نظر أمريكيّة

تأليف

برنارد لويس
إدوارد سعيد

دار الجيل
بيروت

الإسلام الأصولي

في وسائل الإعلام الغربية
من وجهة نظر أمريكية

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

برنارد لويس

ولد في لندن بتاريخ ١٩١٦/٥/٣١، وحصل على الليسانس مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة لندن عام ١٩٣٦ ودبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس ١٩٣٧ والدكتوراه من جامعة لندن ١٩٣٩ وهو أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة برنستون وعضو دائم في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون ــ نيوجرسي ١٩٧٤.

وكان قد عيّن من قبل مساعد محاضر في التاريخ الاسلامي في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ١٩٣٨ ومحاضراً في قسم الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن ١٩٤٠ وفي مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن محاضراً أول ١٩٤٦ وقارئاً ١٩٤٧. وأستاذاً لتاريخ الشرق الأدنى والشرق الأوسط ١٩٤٩ ــ ١٩٧٤ وعمل أستاذاً زائراً في جامعة كاليفورنيا ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ وفي جامعة كولومبيا ١٩٦٠ وفي جامعة انديانا ١٩٦٣ وفي جامعة برنستون ١٩٦٤ وعضواً زائراً في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون ١٩٦٩ وهو زميل الأكاديمية البريطانية ١٩٦٣ وعضو مراسل لمعهد مصر ١٩٦٩ وعضو شرف في الجمعية التاريخية التركية ١٩٧٢ وفي وزارة الثقافة التركية ١٩٧٣ وعضو الجمعية الفلسفية الأمريكية ١٩٧٣ وحصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية بالقدس ١٩٧٤ وزميل المعهد الجامعي بلندن ١٩٧٦ وهو عضو في الجمعية الآسيوية الملكية والجمعية التاريخية الملكية والمعهد الملكي للشؤون الدولية والجمعية الامريكية الشرقية.

أعماله :

١ ــ أصول الاسماعيلية : وهو كتاب نفيس يصنف الشيعة الى شيعة معتدلة ومغالية . كمبردج ١٩٤٠ نقل الى اللغة العربية .

٢ ــ تركيا اليوم : (١٩٤٠) .

٣ ــ تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية (١٩٤١) .

٤ ــ السياسة والدبلوماسية العربية (لندن ١٩٤٧ م) .

٥ ــ ارض السحرة (١٩٤٨) .

٦ ــ العرب في التاريخ (لندن ١٩٥٠ الطبعة الخامسة عام ١٩٧٠ نقله الى العربية نبيه أمين فارس ومحمد يوسف زايد ــ بيروت ١٩٥٤ وترجم الى العبرية والفرنسية والأسبانية واليابانية والمالارية) .

٧ ــ ملاحظات ووثائق من المحفوظات التركية (١٩٥٢) .

٨ ــ التاج الملكي : ترجمة عن ابن جبيرول (لندن ١٩٦١) .

٩ ــ مؤرخو الشرق الأوسط بالاشتراك مع هولت (لندن ١٩٦٢) .

١٠ ــ استانبول وحضارة الامبراطورية العثمانية (١٩٦٣) ترجم الى العربية واليونانية والعبرية واليابانية .

١١ ــ تاريخ كمبريدج للإسلام بالاشتراك مع غيره (كمبريدج ١٩٧٠) .

١٢ ــ العنصرية واللون الاسلامي (نيويورك ١٩٧١) ترجم الى الإيطالية .

١٣ ــ الاسلام في التاريخ (لندن ١٩٧٣) .

١٤ ــ الاسلام من النبي محمد حتى سقوط القسطنطينية في مجلدين (نيويورك ١٩٧٤) .

١٥ ــ التاريخ . (برنستون ١٩٧٥) .

١٦ ــ عالم الاسلام . (لندن ١٩٧٦) .

١٧ ــ اسماعيل والعالم العربي (نيويورك ١٩٧٦ وقد تكررت طبعاته وترجم إلى الفرنسية والألمانية والهولندية) .

١٨ ــ دراسات في الاسلام والعثمانيين من القرن السابع الى القرن السادس عشر (آخر طبعاته لندن ١٩٧٦) .

١٩ ــ دائرة المعارف الاسلامية بالاشتراك مع غيره .

ومن أبحاثه في نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية :

١ ــ تفسير اسماعيلي لخروج آدم من الجنة ١٩٣٧ ــ ١٩٣٩
٢ ــ مصدر يهودي عن دمشق عقب الفتح العثماني ١٩٤٠ ــ ١٩٤٢ .
٣ ــ مذكرات اسماعيلية (١٩٤٨) .
٤ ــ سفر الوحي وأثره في التاريخ الإسلامي ١٩٥٠ .
٥ ــ صلاح الدين والحشاشين ١٩٥٣ .
٦ ــ رواية عربية عن صفد ١٩٥٣ .
٧ ــ الاسلام وأوربا ١٩٥٧ .
٨ ــ ترجمة حياة جوزيف شاخت ١٩٧٠ .

ومن أبحاثه :

١ ــ التنظيم الاقتصادي ــ مجلة التاريخ الاقتصادي مجلد ٨ عام ١٩٣٧ .
٢ ــ رواية عربية عن ثورة بلاط بيزنطة ــ بيزانسون ١٩٣٩ .
٣ ــ الفاطميون وطريق الهند ــ مجلة كلية العلوم الاقتصادية استانبول ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠ .
٤ ــ مصادر لتاريخ الحشاشين في سوريا ــ المرآة ١٩٥٢ .
٥ ــ الشيوعية والاسلام ــ الشؤون الدولية ١٩٥٤ .
٦ ــ مفهوم الجمهورية في الاسلام ــ العالم الاسلامي ١٩٥٥ .
٧ ــ كتاب اسماعيلي من القرن الرابع عشر ــ مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٥٥ .
٨ ــ الديمقراطية والشرق الأوسط ــ جمعية الشرق الأوسط ٦ ، ١٩٥٥ .
٩ ــ رد الشرق الأوسط عن الضغط السوفيتي ــ ١٩٥٦ .
١٠ ــ المسعودي وملوك الفرنجة ــ الذكرى الألفية للمسعودي ١٩٦٠ .
١١ ــ الاسلام وأوربا وأمريكا ــ حلقة علم الاجتماع الاسلامي ١٩٦١ .
١٢ ــ الميمونيون وصلاح الدين ــ ذكرى ماير ١٩٦٤ .

١٣ ــ كمال الدين ــ أرابيكا ١٣، ١٩٦٦.
١٤ ــ العرب واسرائيل وفلسطين ــ الشؤون الخارجية ٤٦، ٤٧، ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨.
١٥ ــ جغرافية الشرق الأوسط ــ دراسات الشرق الأوسط ٤، ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨.
١٦ ــ الاسلام ــ الأندلس ٣٨ ــ ١٩٦٨.
١٧ ــ الاسلام والثورة ــ الثورة في الشرق الأوسط لناشره فاتيكوس ١٩٧٢.
١٨ ــ من تاريخ شمال افريقيا ــ مجلة الغرب المسلم والبحر المتوسط ١٥ ــ ١٦، ١٩٧٣.
١٩ ــ المصطلحات السياسية في العربية الحديثة ــ الشرقيات الاسبانية ١٩٧٤.
٢٠ ــ زراعة الحبوب في اليمن وكتاب بغية الفلاحين ــ الدراسات العربية ٢١، ١٩٧٤.
٢١ ــ جنوب الجزيرة العربية ــ لوزاك ١٩٧٦.
٢٢ ــ النمو والثقافة في ايران الاسلامية ــ ١٩٧٦.
٢٣ ــ جذور السخط الأسلامي ــ اتلانتيك الشهرية ١٩٩٠.

جذور السخط الإسلامي

بقلم: برنارد لويس

في احدى رسائله ، لاحظ توماس جيفرسون انه فيما يتعلق بأمور الدين فإن «مبدأ الحكومة المدنية» ينبغي أن يعكس ، ويجب علينا بالأحرى أن نقول : «انت في حالة اتحادهما ـــ الدين والسياسة ـــ تسقط ، وفي حالة انفصالهما تنتعش» .

في هذه الملاحظة كان جيفرسون يقدم بإيجاز تقليدي فكرة اعتبرت أساساً فكرة أمريكية : فصل الكنيسة عن الدولة . هذه الفكرة لم تكن جديدة تماماً ؛ اذ كان لها بعض أسبقية في كتابات اسبينوزا ولوك وفلاسفة عصر التنوير الأوربي ، وكانت الولايات المتحدة ـــ على أية حال ـــ أول من أعطى هذه الفكرة قوة القانون ، وتدريجياً خلال قرنين من الزمان أصبح هذا المبدأ حقيقة واقعة .

اذا كانت فكرة فصل الدين عن السياسة جديدة نسبياً ـــ اذ ترجع الى ما قبل ثلاثمائة عام فحسب ـــ فان فكرة كونهما متمايزين ترقى الى بدايات المسيحية تقريباً ، فقد أمر المسيحيون في كتابهم المقدس أن «اعط ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله» . وفي الوقت الذي اختلفت فيه الآراء حول المعنى الحقيقي لهذه العبارة ،

فانها بشكل عام أولت على اعتبار انها اضفاء الشرعية على حالة توجد فيها مؤسستان جنباً الى جنب ، لكل من هاتين المؤسستين قوانينها الخاصة وسلسلة من السلطات ــ احداهما مرتبطة بالدين وتدعى الكنيسة ، فيما الأخرى مرتبطة بالسياسة وتدعى الدولة ، وبما انهما اثنتان فمن الممكن اتحادهما وانفصالهما ، خضوع إحداهما للأخرى أو استقلالها عنها ، وربما احتدمت الصراعات بينهما حول قضايا تعيين حدود ونطاق سلطات كل منهما .

هذه المنظومة من المشكلات الناتجة عن العلاقة بين هاتين المؤسستين ، والحلول الممكنة لهذه المشكلات ، انبثقت من المبادىء والخبرات المسيحية . ولكن لم يكن ذلك على المستوى العالمي ، اذ أن هناك عقائد دينية أخرى توجد فيها السياسة والدين بشكل مغاير عما كان في المسيحية ، لذا فان هذه المشكلات والحلول الممكنة لها كانت مختلفة جداً عن تلك التي نعرفها في الغرب .

غالبية هذه الأديان ، وعلى الرغم من مستواها الرفيع وما قدمته من انجازات . كانت مقصورة على اقليم واحد أو ثقافة واحدة ، أو شعب واحد . إلا أنه على أية حال يوجد دين واحد يمكن مقارنته مع المسيحية من حيث رقعة انتشاره الواسعة وطموحه العالمي وحيويته المتدفقة ، وهذا الدين هو الاسلام .

الاسلام واحد من أعظم ديانات العالم . ودعوني أكن واضحاً حول ما أقصده بهذا ، باعتباري مؤرخاً غير مسلم ، للدين الاسلامي .

لقد منح الاسلام الراحة والطمأنينة لملايين لا تحصى من الرجال والنساء ، فقد أعطى كرامة ومعنى للحياة التي كانت رتيبة ، تعيسة ، وبائسة . كما أنه علم شعوباً من عروق مختلفة أن يعيشوا حياة أخوية ، وجعل شعوباً مختلفة المشارب تتعايش جنباً الى جنب في تسامح معقول . كما أنه ألهم حضارة عظيمة عاش فيها المسلمون وغيرهم معاً حياة خلاقة ومفيدة ، وهذه الحضارة أغنت العالم بأسره بما حققته من انجازات . وعلى شاكلة غيره من الأديان ، فقد عرف الاسلام فترات نفخ فيها روح الكراهية والعنف في أتباعه ، ومن سوء حظنا فان جزءاً من العالم

الاسلامي ــ ليس كله بل ولا يشكل الأغلبية ــ لا يزال يرزح تحت وطأة هذا الميراث، ومن سوء حظنا أن غالبية ــ وليس كل ــ هذه الكراهية والعنف موجهة ضدنا في الغرب.

ينبغي علينا ألا نضخم أبعاد هذه المشكلة. فالعالم الاسلامي غير مجمع على رفض الغرب، كما أن الأقاليم الاسلامية في العالم الثالث ليست هي الأشد تطرفاً ومغالاة في عداوتها لنا. كما أننا نشاطر أعداداً هائلة من المسلمين ــ وربما الأغلبية منهم ــ المعتقدات والآراء والتطلعات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية. ولا يزال هناك حضور غربي مهيمن وفعال ــ ثقافياً واقتصادياً ودبلوماسياً ــ في الأراضي الاسلامية. كما أن بعض البلدان الاسلامية هي حليفة للغرب. وبالتأكيد فإن السياسة الأمريكية لم تعان كوارث ومشكلات في أي جزء من العالم الاسلامي ــ لا في الشرق الأوسط ولا في غيره ــ يمكن مقارنتها بتلك الكوارث والمشكلات التي قاست منها في جنوب شرق آسيا وأمريكا الوسطى. فليس هناك كوبا ولا فيتنام في العالم الاسلامي. كما انه لم تتورط القوى العسكرية الأمريكية في أي مكان من العالم الاسلامي، سواء على مستوى القوات الفعلية المقاتلة، أو على مستوى «المستشارين العسكريين» ولكن هناك ليبيا، وايران، ولبنان، وموجة مشحونة بالكره تضايق وتنذر، وفوق كل ذلك ترعب وتحير الأمريكيين.

هذه الكراهية تتجاوز أحياناً العداء الموجه ضد مصالح وافعال وسياسات، وحتى بلدان معينة، وتصبح رفضاً شاملاً للحضارة الغربية برمتها، ليس فقط بما تجترحه هذه الحضارة بل بما هي، بقيمها ومبادئها التي تمارسها وتحترفها. فهذه المبادىء والقيم تبدو لهم حقاً شراً متأصلاً، وأولئك الذين يشجعونها أو يقبلون بها يعتبرون «أعداء الله».

هذه العبارة «أعداء الله» التي تتردد باستمرار في خطاب القيادة الايرانية، سواء في اجراءاتهم القانونية أو بياناتهم السياسية، لا بد أن تبدو غريبة جداً في العالم المتحضر ــ على المستويين الديني والسياسي سواء بسواء ــ.

ففكرة ان الله له أعداء وانه بحاجة لمعونة البشر لتحديدهم ، والتخلص منهم ، تبدو الى حد ما عصية على الفهم. إلا أنها على أية حال ليست مستهجنة ، فمفهوم « أعداء الله » شائع في أدبيات العصور الوسطى وما قبلها ، وفي العهدين القديم والجديد كما في القرآن.

على وجه الخصوص ، ترد هذه الفكرة على شكل صورة مشابهة في ديانات ايران الثنوية القديمة ، فنظرية هذه الأديان عن نشأة الكون تفترض ليس قوة واحدة بل قوتين جبارتين. وبخلاف الشيطان كما تعرفه الديانات المسيحية والاسلامية واليهودية ، فشيطان زرادشت ليس واحداً من مخلوقات الله ينفذ بعضاً من وظائف الله الأكثر غموضاً ، وانما هو قوة مستقلة بنفسه ، قوة جبارة من الشر منغمسة في صراع كوني ضد الله.

هذا المعتقد ترك أثره على عدد من النِحّل المسيحية والاسلامية واليهودية من خلال المانوية وبقية الطرق. وديانة ماني المنسية تقريباً أعطت اسمها للادراك الحسي لهذه المشكلات على انه صراع شديد الوضوح بين قوى الخير الخالص وقوى الشر الخالص المتصارعة.

القرآن بالطبع توحيدي بشكل راسخ ، ويؤمن بإله واحد ، وقوة كونية واحدة. وهناك صراع في قلوب البشر بين الخير والشر. بين أوامر الله والاغراءات ، إلا أن ذلك يبدو كأنه صراع مسير من قبل الله ومحسوم سلفاً لصالحه ،وظيفته اختبار الانسان. وبخلاف الأديان الثنوية القديمة ، فليس للانسان دور في هذا الصراع لتحقيق النصر للخير ضد الشر. رغم ذلك فان الإسلام ــ مثله مثل اليهودية والمسيحية ــ تأثر ــ وخاصة في ايران ــ بفكرة المثنوية حول صراع كوني بين الخير والشر ، النور والظلمات ، النظام والفوضى ، الحقيقة والزيف ، الله وعدوه الذي عرف بالشيطان أو ابليس ، وبغير ذلك من الأسماء.

بزوغ دار الكفر

صراع الخير والشر في الإسلام اكتسب بسرعة أبعاداً سياسية بل وعسكرية. فمحمد ــ على سبيل التذكير ــ لم يكن فقط رسولاً أو معلماً على شاكلة غيره من مؤسسي الأديان، فهو أيضاً قائد الحكومة والمجتمع، حاكماً مقاتلاً، ومن ثم فان كفاحه استلزم دولة وقوات مقاتلة. اذا كان المقاتلون في سبيل الاسلام ــ الحرب المقدسة في سبيل الله ــ يقاتلون من اجل الله، فان ذلك يستتبع القول إن خصومهم يقاتلون ضد الله. وبما أن الله هو المهيمن ومصدر السلطات من حيث المبدأ، وهو أيضاً القائد العلوي للدولة الإسلامية، والنبي (وخلفاؤه من بعده) وكلاء مباشرون عنه، فإن الله اذن هو راعي الجيش وقائده. الجيش هو جيش الله، والأعداء هم أعداء الله، فواجب جنود الله اذن هو ارسال أعداء الله بأقصى سرعة ممكنة الى حيث سيتولى الله بنفسه معاقبتهم وتأديبهم، أي إلى الآخرة.

من الواضح انسجام هذا الأمر مع الرؤية الاسلامية للتقسيم الأساسي للبشرية. فمعظم ــ وربما كل ــ المجتمعات الانسانية لها طريقتها الخاصة للتمييز بين أنفسها والآخرين. بين الأنا والآخر، بين أتباع الجماعة وسواهم، الأقارب أو الجيران أو الأغراب. هذه الطريقة في التحديد والتعريف بفرض التمييز لا تحدد فقط الخارج، بل أيضاً ــ وبشكل خاص ــ تساعد على تحديد وتوضيح مفهومنا عن أنفسنا.

في الرؤية الاسلامية التقليدية ــ التي بدأت أعداد كبيرة من المسلمين بالرجوع اليها ــ العالم كله ينقسم الى فريقين: دار الاسلام حيث تسود الشريعة والعقيدة الاسلامية. والباقي في دار الكفر أو دار الحرب التي من واجب المسلمين في النهاية أن يضموها إلى الإسلام. ولكن الجزء الأكبر من العالم لا يزال خارج الإسلام، وحتى داخل البلدان الاسلامية وتبعاً لرؤية المتشددين الإسلاميين فان العقيدة الاسلامية ضعفت، والشريعة الاسلامية عطلت، لذا فان واجب الحرب المقدسة أن تبدأ في الداخل وتمتد للخارج ضد نفس العدو الكافر.

كبقية الحضارات الانسانية التي عرفها تاريخ البشرية ، فإن العالم الإسلامي في ذروة تألقه رأى نفسه كمركز للحقيقة والتنوير ، محاطاً بهمجيين كفرة ينبغي عليه في الوقت الملائم أن يحضرهم وينورهم. ولكن وبسبب اختلاف مجموعات هؤلاء الأغراب الكفرة فقد ترتب على ذلك اختلاف آخر حاسم. فالأغراب في الشرق والجنوب كانوا مشركين ووثنيين ومن ثم فلم يكونوا يشكلون أي تهديد خطير، ولم يعتبروا منافسين جديين للاسلام على الاطلاق. أما في الشمال والغرب ــ على العكس من ذلك ــ أدرك المسلمون منذ البدايات الأولى أن هناك خصماً حقيقياً ، ديناً عالمياً منافساً ، وحضارة متميزة بنيت بإلهام من ذلك الدين، وامبراطورية رغم أنها أصغر بكثير من امبراطوريتهم فان طموحاتها لا تقل مطلقاً عن امبراطوريتهم في دعاويها وتطلعاتها ، هذا الكيان المنافس عرف من قبل أتباعه وغيرهم بالنصرانية وما تمثله من عالم مسيحي.

استمر الصراع بين هذين النظامين المتنافسين لمدة أربعة عشر قرناً . لقد بدأ مع الأيام الأولى للاسلام ، في القرن السابع ، واستمر عملياً حتى يومنا الراهن. وقد اشتمل سلسلة طويلة من الهجومات والهجومات المضادة ، أعمال الجهاد والحملات الصليبية ، الفتوحات والفتوحات المضادة. وطوال السنين الألف الأولى كان الاسلام متقدماً ، وكانت النصرانية في حالة تراجع وتقهقر مما عرّضها للخطر. وانتزع الدين الجديد أراضي المسيحية في الشرق وشمال افريقيا ، واجتاح أوربا حاكماً لفترات في صقلية ، واسبانيا ، والبرتغال ، وحتى أجزاء من فرنسا. ومحاولات الصليبيين ليستعيدوا الأراضي التي خسروها في الشرق لاقت فشلاً ذريعاً وعادوا مدحورين. حتى أن الأراضي التي فقدها المسلمون في جنوب غرب أوربا عوضوها باسهاب بالتقدم في جنوب شرق أوربا ، ووصلوا مرتين إلى أبواب فيينا. ولكن طوال الثلاثمائة عام الأخيرة ، منذ اندحار الحصار التركي الثاني لفيينا عام ١٦٨٣ م وبروز الامبراطوريات الأوربية الاستعمارية في أوربا وافريقيا ، تراجع الاسلام الى الوضع الدفاعي. ونجحت المسيحية وحضارتها ،

وما أعقبها في أوربا وبناتها، نجحت في جعل العالم كله، بما في ذلك الاسلام، يدور في فلكها.

منذ وقت طويل، وجد الغرب عصياناً متنامياً ضد هذا التسلط الغربي، ودافعاً لاعادة تأكيد القيم الاسلامية واحياء المهابة الاسلامية. لقد عانى المسلم من مراحل متعاقبة من الهزيمة. أولى هذه الهزائم فقدانه الهيمنة على العالم لصالح القوة المهاجمة: لروسيا من جهة، والغرب من جهة أخرى. وثانيتها كانت تقليص سلطاته داخل حدود بلاده ذاتها، من خلال الأفكار الأجنبية الغازية والقوانين وطرق الحياة الأجنبية، بل وأحياناً الحكام والمستعمرين الأغراب، وتدخل العناصر غير الاسلامية. ثالث الهزائم — وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير — كانت تحدي سيادته في عقر داره من النساء المتحررات والشباب المتمردين. لقد كان كل ذلك شيئاً لا يمكن تحمله. وكان أمراً محتوماً لا يمكن تجنبه ان ينفجر الغضب ضد هذه القوى المخالفة، الكافرة، العصية على الفهم، التي عملت على تدمير هيئته ومزقت مجتمعه وأخيراً انتهكت حرمة بيته. كما أنه كان من الطبيعي أن ذلك الغضب ينبغي أن يوجه في المقام الأول ضد ذلك العدو الذي ناصبه العداء لألف سنة، وكان طبيعياً أيضاً أن يستمد قوته من العقائد والولاءات القديمة.

أوربا وبناتها؟ قد تبدو هذه العبارة غريبة للأمريكيين الذين تصورهم أساطيرهم القومية، منذ بدايات تكونهم وحتى أبكر من ذلك، كشيء جديد مغاير لأوربا ومختلف عنها جذرياً. على أية حال فإن هذا الأمر لا يُرى على هذا النحو إلا نادراً في أوربا، وبالكاد في بقية أنحاء العالم. فعلى الرغم أن شعوباً متعددة الأعراق والثقافات شاركت — وغالباً تم ذلك كرهاً — في اكتشاف وخلق الأمريكيتين، فان سائر العالم — عدا قلة في أوربا — ترى أن هذا الأمر برمته مشروع أوربي، سيطر عليه الأوربيون ومنحوه لغاتهم، وأديانهم، وكثيراً من طرائق معيشتهم.

لزمن طويل جداً كانت الهجرة الطوعية إلى أميركا على وجه الحصر أوربية. لقد كان هناك فعلاً بعض من جاؤوا من الأراضي الاسلامية في الشرق الأوسط وشمال افريقية، لكن قلة قليلة منهم كانوا مسلمين، فأغلبهم كانوا مسيحيين، وعلى نطاق أضيق كان بعضهم يهوداً يعيشون في تلك البلدان. ان هجرة هؤلاء وبالتالي حاضرهم في أمريكا عملت بالتأكيد على تثبيت الصورة السالفة في مخيلة المسلمين بدلاً من أن تعمل على تخفيفها، تلك الصورة التي تدغم بين الأوربيين والأمريكيين.

الملاحظ في البلدان الاسلامية أن شيئاً قليلاً فحسب كان معروفاً عن أمريكا. في البدء استثارت رحلات الاستكشاف اهتماماً بسيطاً ـــ النسخة الوحيدة الباقية من خريطة كولومبس الخاصة هي نسخة مترجمة للتركية ولا تزال معروضة حتى الآن في متحف قصر طوب قابي في استانبول ـــ وفي القرن السادس عشر اعتبر الجغرافيون الأتراك من مكتشفي العالم الجديد. وكان كتاب «تاريخ الهند الغربية» واحداً من أوائل الكتب التي طبعت في تركيا. ولكن فيما بعد بدا أن الاهتمام بالموضوع ناله ضعف ولم يكن يقال الكثير عن أمريكا في اللغة التركية أو العربية أو غيرهما من اللغات الاسلامية حتى تاريخ متأخر نسبياً.

كتب السفير المغربي الذي كان في ذلك الوقت في اسبانيا مما يجب بكل تأكيد أن يعتبر اول تقرير عربي عن الثورة الأمريكية. وعقد سلطان مراكش معاهدة سلام وصداقة مع الولايات المتحدة عام ١٧٨٧ م. ومن ثم فإن الجمهورية الفتية كسبت بعض المعاملات، وبعض الأصدقاء، وبعض العداوات ـــ وأغلب ذلك تم على أساس تجاري ـــ مع البلدان الاسلامية. ويبدو أن كل هذا خلف تأثيراً محدوداً في كلا الجانبين. الثورة الأمريكية والجمهورية الأمريكية التي نتجت عنها لم تلاحظ ذلك، ولم يكن يعرف عنها شيء ذو بال في العالم الاسلامي. بل اكثر من ذلك فإن الحضور الأمريكي ـــ الصغير ولكن المتنامي ـــ في البلدان الاسلامية في القرن التاسع عشر ـــ تجار، قناصل، مبشرون، معلمون ـــ لم يثر أي اهتمام يذكر وان فعل فليس اكثر من بعض الفضول، وعلى

الأغلب لم يكن ذلك ملاحظاً على الاطلاق في الأدب الاسلامي والصحف الاسلامية في ذلك الوقت.

الحرب العالمية الثانية، والصناعة النفطية، وتنمية ما بعد الحرب جلبت عدداً من الأمريكيين الى البلدان الاسلامية، وبالمقابل، فان عدداً متزايداً من المسلمين أتوا إلى أمريكا ـــ كطلاب في البداية ومن ثم كمعلمين أو رجال أعمال أو زائرين وأخيراً كمهاجرين ـــ وقامت السينما، ومن ثم التلفزيون، بنشر الطريقة الأمريكية في الحياة أو على الأقل صورة عنها. قبل ذلك لم يكن حتى اسم أمريكا سوى شيء عديم المعنى أو الأهمية لملايين لا تحصى.

سلسلة من المنتوجات الأمريكية ـــ خصوصاً سنوات ما بعد الحرب عندما كانت المنافسة الأوربية غير ذات بال ولمّا تظهر بعد المنافسة اليابانية ـــ وصلت الى أقصى بقاع العالم الاسلامية رابحة زبائن جدداً وربما كان ذلك أكثر أهمية، خالقة أذواقاً وطموحات جديدة. فلبعضهم مثلت أمريكا الحرية والعدالة والرفاهية، ولآخرين مثلت الغنى والقوة والنجاح في الوقت الذي لم تكن هذه القيم ينظر اليها كآثام أو شرور أو جرائم.

وأعقب ذلك، التغيير العظيم، حين بدأ قادة الاحياء الديني الواسعي النفوذ يصمون أعداءهم ويعرفونهم بأنهم أعداء الله، وألصقوا بهم «مسكناً ومسمى محليين» في نصف الكرة الغربي.

على حين غرة، أو هكذا بدا الأمر، أصبحت أمريكا العدو الأساسي، والشيطان الأكبر، وابليس المتجسد، والمناوىء الشرير لكل ما هو خير ـــ وخاصة بالنسبة للاسلام والمسلمين ـــ فلماذا؟

بعض الاتهامات المألوفة

بين العناصر الأساسية في مزاج معاداة الغربية، وعلى وجه خاص معاداة الأمريكانية، أتت مؤثرات فكرية من أوربا. واحدة من هذه المؤثرات جاءت من ألمانية. حيث شكلت الصورة السلبية لأمريكا جزءاً من مدرسة تضم النازية جنباً الى جنب مع كتاب ذوي مشارب مختلفة مثل Rainer Maria Rilke و Ernest Junker و Martin Heidegger . وتبعاً لمفهوم هؤلاء غدت أمريكا المثال المطلق للحضارة التي تفتقر للثقافة: غنى ورفاهية، تقدم مادي ولكنه دون روح، وفوق ذلك مصطنع، ومرقع وعلى أحسن الفروض مركب ولكنه ليس منتجاً بطريقة مشرفة، تقدم فني وليس عضوياً، معقد تقنياً ولكن تعوزه الروحانية والحيوية والانسانية التي يتمتع بها الألمان وغيرهم من الشعوب «الأصيلة». الفلسفة الألمانية، وخاصة فلسفة التربية، أصبحت موضة رائجة بين العرب وغيرهم من المفكرين المسلمين في الثلاثينات واوائل الأربعينات. وهذه الفلسفة المعادية للأمريكانية كانت جزءاً من الرسالة.

عقب سقوط الرايخ الثالث وانتهاء التأثير الألماني المؤقت، حلت فلسفة أخرى اكثر عداء للأمريكانية محلها. انها النسخة السوفياتية من الماركسية، التي تشجب الرأسمالية الغربية وخاصة الأمريكية التي تشكل الصورة الأكثر تقدماً وخطراً. وما إن بدأ التأثير السوفياتي يضمحل حتى كان غيره يأخذ مكانه، أو على الأقل يكمل عمله، انه مفهوم العالم الثالث الغامض الذي انطلق من أوربا الغربية — وخاصة من فرنسا في البداية ومن ثم في الولايات المتحدة مترسماً في بعض الأحيان خطى تلك الفلسفات السابقة. هذا الغموض استفاد من الحنين الانساني المتقادم الذي يحلم بخلق العصر الذهبي، خصوصاً النزعة الأوربية لاقامته في مكان آخر، غير أوربا. هذا الشكل الجديد لأسطورة العصر الذهبي اخذ مكانه في العالم الثالث، حيث براءة آدم وحواء اللا غربيين دنست بالأفعى الغربية.

هذه الرؤية، وقد اعتبرت انه من قبيل البديهي نسبة الخير والنقاء للشرق

ونسبة الشر للغرب، انتشرت على شكل هلال، نام، يمتد من أوربا الغربية الى الولايات المتحدة. ووجدت مرتعاً خصباً ولاقت دعماً واسعاً.

ولكن رغم أن هذه الفلسفات المستوردة ساعدت على توفير التعبير العقلاني لنزعة معاداة الغربية والأمريكانية فانها لم تخلقها من عدم، وبالتأكيد فانها لا تفسر ذلك الانتشار الواسع لنزعة معاداة الغرب التي جعلت عدداً كبيراً من الناس في الشرق الأوسط وغيره من البلاد الاسلامية يُقبلون على أفكار كهذه.

ينبغي أن يكون واضحاً أن الذي حصل على دعم لمثل هذه التعاليم المتباينة اجمالا لم يكن نظرية العرق النازي التي لم ترق للعرب كثيراً، ولا الشيوعية الملحدة السوفياتية التي أثارت امتعاض المسلمين، وانما كانت تلك النزعة الشائعة المعادية للغرب. النازية والشيوعية كانتا القوى الرئيسة المناوئة للغرب سواء بوصفهما طريقة للحياة أو قوى عالمية، وبما أنهما كذلك فانه كان بامكانهما أن تدخلا في حسابهما الحماس ــ ان لم يكن الدعم ــ من اولئك الذين رأوا في الغرب عدوهم الأساس.

ولكن لماذا العدائية في المقام الأول ؟

اذا انتقلنا من العموميات الى التفاصيل فانه لا تعوزنا الأفعال والسياسات التي اجترحتها الحكومات الغربية والتي أثارت انفعال وغضب الشرق أوسطيين وغيرهم من الشعوب الاسلامية. ورغم أن هذه السياسات غالباً هجرت وحُلّت المشكلات الناتجة عنها، فإن ذلك لم يسبب سوى تسكين مؤقت ومحلي. فالفرنسيون تركوا الجزائر، والبريطانيون غادروا مصر، وشركات النفط الغربية تخلت عن آبار نفطهم، والشاه المتغرب ترك ايران، ورغم ذلك فان امتعاض الاصوليين وغيرهم من المتطرفين المعمم ضد الغرب وأصدقائه نما واستمر ولم يهدأ.

إن السبب الذي يقدم باستمرار كمبرر للمشاعر المعادية لأمريكا بين المسلمين

اليوم هو الدعم الأمريكي لإسرائيل ، وهذا الدعم بالتأكيد عامل أهمية يزداد بروزاً بالأطراد مع ازدياد التورط ، ولكن هنا أيضاً توجد بعض الغرابة من الصعب ارجاعها إلى أسباب مفردة بسيطة . ففي الأ يام الأ ولى لتأسيس اسرائيل ، وبينما حافظت الولايات المتحدة على مسافة معينة ، كان الاتحاد السوفياتي يمنحها اعترافاً شرعياً ودعماً فورياً ، وأرسل أسلحة من احدى البلدان الخاضعة له :
ـ تشيكوسلوفاكية ـ أنقذت الدولة الاسرائيلية الوليدة من الهزيمة والفناء في الأسابيع الأ ولى من حياتها . ورغم ذلك بدا أن هذه السياسات السوفياتية لم تحمل على محمل سيِّيء ، وبالمقابل فان السياسات الأمريكية لم تحمل على محمل حسن .

في عام ١٩٥٦ كانت الولايات المتحدة هي التي تدخلت ـ بالقوة وبشكل حاسم ـ لتأمين انسحاب القوات الاسرائيلية والفرنسية والبريطانية من مصر . ورغم ذلك فقد توجه قادة مصر وسوريا والعراق في أواخر الخمسينات ، والستينات ، الى الاتحاد السوفياتي ـ وليس الولايات المتحدة ـ من أجل الحصول على الأسلحة ، وشكلوا مع الكتلة السوفياتية ميثاق تضامن في الأمم المتحدة وفي العالم بشكل عام . ومؤخراً ، أبدى قادة الجمهورية الاسلامية الايرانية أشد التنديد والشجب ضد اسرائيل والصهيونية . ورغم ذلك ، فإن هؤلاء القادة ، قبل وأيضاً بعد وفاة آية الله روح الله الخميني ، وعندما قرروا لأسبابهم الخاصة أن يدخلوا في حوار وجدوا أنه من الأسهل عليهم أن يتحادثوا مع القدس من أن يتحادثوا مع واشنطن . وفي نفس الوقت ، كان الرهائن الغربيون في لبنان ، وكثيرون منهم متعاطفون مع قضايا العرب وبعضهم كان بالفعل قد اهتدى الى الاسلام ، ينظر اليهم من قبل مختطفيهم كأعداء ويعاملون باعتبار انهم ممثلو الشيطان الأكبر .

توضيح آخر ، ويسمع غالباً من المشاكسين المسلمين ، يعزو مشاعر العداء للأمريكانية الى الدعم الأمريكي لأنظمة الحكم المكروهة ، التي تبدو رجعية بنظر المتشددين ، وفاسقة بنظر المحافظين ، وفاسدة ومستبدة باتفاق الفريقين . هذه التهمة تحظى ببعض المعقولية ، ويمكن أن تساعد في تفسير كيف أن حركة ذات

توجه داخلي أساساً ، وغالباً معادية للقومية ، لا بد أن تكون معادية للقوة الأجنبية ، إلا أن هذا التوضيح لا يفي بالغرض وخصوصاً لأن مثل هذا الدعم لأنظمة الحكم المذكورة أصبح محدوداً ليس في الحجم فقط وانما ــ وكما اكتشف الشاه ــ في الفعالية أيضاً .

من الواضح أن هناك شيئاً ما أكثر عمقاً من المظالم والشكاوى الخاصة ، حتى لو كانت هذه المظالم متعددة وهامة . شيئاً ما أكثر جذرية يحيل كل تعارض الى مشكلة ويجعل كل قضية امراً صعباً عصياً على الحل .

ان هذا الاشمئزاز الموجه ضد أمريكا وضد الغرب بشكل أعم لم يقتصر على العالم الاسلامي على الاطلاق ، ولم يبد المسلمون أو يمارسوا ــ باستثناء الائمة الايرانيين وأتباعهم في اماكن أخرى ــ الأشكال الأكثر قسوة من هذا الشعور .

ان الشعور بخيبة الأمل والحقد ترك بصماته في أجزاء كثيرة من العالم ، بل انه وصل الى مناطق في الولايات المتحدة ، ومن هؤلاء الأخرين الذين يتحدثون عن انفسهم ــ مدعين انهم يتحدثون عن الشعوب المضطهدة في العالم الثالث ــ والذين نشروا تفسيرات وتبريرات لرفضهم للحضارة الغربية وقيمها والتي لاقت ــ أي هذه التفسيرات ــ انتشاراً واسعاً . الاتهامات مألوفة ، نحن الغربيين متهمون بالبطريركية ، والتمييز العنصري ، والامبريالية ، والاستعباد ، والاستبداد ، والاستغلال .

بالنسبة الى هذه الاتهامات وغيرها من الاتهامات المشابهة ، ليس لدينا خيار إلا أن نرد الاتهام ، ليس كأمريكيين ولا كغربيين ، بل كمخلوقات انسانية وكأعضاء في الجنس البشري . فبالنسبة لبعض هذه الاتهامات لسنا وحدنا الآثمين ، وبالنسبة لبعضها الآخر نحن بعيدون كثيراً عن أن نكون الأسوأ . فمعاملة النساء في العالم الغربي ، وعموماً في النصرانية ، كانت على الدوام غير منصفة وغالباً جائرة ، ولكن حتى في أكثر سيئاتها كانت أفضل حالاً من نظام

تعدد الزوجات والتسري الذي كان تقريباً النصيب المشترك للنساء على هذا الكوكب .

هل العنصرية اذن هي الشكوى الرئيسة؟ من المؤكد أن هذه الكلمة تبرز بوضوح في الدعاية الموجهة الى أوربا الغربية والشرقية وبعض أنصار العالم الثالث، على أنها تبرز بوضوح أقل في الدعاية المكتوبة والمنشورة للاستهلاك المحلي. لقد أصبحت العنصرية شتيمة معممة وعديمة المعنى، مثلها مثل الفاشية التي أصبحت هذه الأيام تلصق بالخصوم حتى من قبل المتحدثين الرسميين باسم الأحزاب المتفردة بالسلطة والمتعددة الألوان والشعارات.

اما الاستعباد، فانه يدان اليوم على نطاق عالمي باعتباره اعتداء على الإنسانية. ولكن ومن خلال الذاكرة الحية كان الاستعباد ممارساً بل ومدافعاً عنه كمؤسسة ضرورية أسست ونظمت بواسطة القانون الالهي. ان ميزة المؤسسة الخاصة، كما وعاها الأمريكيون ذات يوم، تكمن ليس بوجودها وانما بإلغائها. الغربيون كانوا أول من خرق الاجماع حول قبول العبودية، في أوطانهم أولاً ومن ثم في البقاع التي سيطروا عليها وأخيراً في سائر انحاء العالم، حيث كان بإمكانهم استخدام القوة أو النفوذ، وبكلمة واحدة: بواسطة وسائل الامبريالية.

هل الامبريالية إذن هي الاتهام الأساس؟ بعض القوى الغربية، وبمعنى ما الحضارة الغربية ككل، كانت بالتأكيد مذنبة بسبب الامبريالية. ولكن هل علينا حقاً أن نصدق أن توسع أوربا الغربية يشكل تقصيراً أخلاقياً لم يكن موجوداً في التوسعات البريئة نسبياً كتلك التي قام بها العرب، والمغول، والعثمانيون، أو التوسعات الأخيرة التي جلبت الحكام الروس الى البلطيق والبحر الأسود وبحر قزوين والمحيط الهادي. بممارساته العنصرية والعرقية والامبريالية كان الغرب فقط يتبع ستة ألف عام من التاريخ البشري الموثق.

فبماذا تتميز الحضارة الغربية عن سواها بهذا المجال؟ هل في انها تعرفت وسمّت وحاولت ــ بنجاح غير تام ــ أن تعالج هذه الأمراض التاريخية. وهذا بالتأكيد مبعث فخر لا إدانة. فنحن لا نحمل الدكتور باركنسون Parkinson أو

الدكتور الزمير Alzheimer مسؤولية الأمراض التي شخصوها وأعطوها أسماءهم.

كانت الامبريالية بلا شك موضع الاتهام والشجب باعتبارها أشد الاعتداءات ضد الانسانية. وكانت تقتصر أحياناً على أوربا الغربية، بينما في أحيان أخرى كانت توضع أوربا الغربية والشرقية، بما في ذلك الكتلة السوفياتية، في سلة واحدة. وهذا المصطلح (الامبريالية) لا يحمل حين يستخدم في أدبيات الأصوليين المسلمين نفس المعاني التي ترد في كتابات النقاد الغربيين. في كثير من الأحيان أعطي هذا المصطلح أهمية دينية مميزة باعتباره مرتبطاً مع كلمة مبشر بحيث يمكن استخدام احدهما مكان الآخر. ويرمز الى منظومة من الهجومات تتضمن الحروب الصليبية والامبراطوريات الاستعمارية الحديثة كذلك. ويتشكل لدى المرء أن التهجم الذي يصم الامبريالية بالاعتداء على الانسانية لا يعني عند النقاد الغربيين سيطرة شعب على شعب آخر، وانما مجرد توزيع للأدوار في هذه العلاقة.

يبدو أن الشيء السيِّء فعلاً وغير المقبول هو هيمنة الكفرة على المؤمنين «الحقيقيين» أي أولئك أتباع الايمان «الحقيقي». فبالنسبة للمتدينين يبدو انه من المناسب والطبيعي أن يحكموا هم الكفرة، لا سيما أن ذلك يوفر فرصة حماية الشريعة الالهية، كما أن هذا الأمر يعطي لأولئك الكفرة الفرصة والحافز، في وقت واحد، ليعانقوا الايمان الحقيقي. أما أن يحكمهم أولئك فيعتبر تجديفاً وأمراً فيه غرابة باعتباره يقود الى افساد الدين والأخلاق في المجتمع والى الاستهتار بالشريعة الالهية، بل الى تعطيلها. هذا يساعدنا على تفهم الاضطرابات الراهنة في بقاع متعددة حيث يخضع المسلمون لحكومات غير اسلامية كما هي الحال في: ارتيريا الاثيوبية، وكشمير الهندية، وكوسوفا اليوغسلافية، وسينغيانغ الصينية. كما أنه يفسر سبب مطالبة المتحدثين باسم الاقليات الاسلامية في أوربا الغربية بدرجة حماية قانونية للاسلام لم تعد توفرها هذه البلدان حتى للمسيحية ولم يسبق لها مطلقاً أن وفرتها لليهودية. ومن البديهي أن بلدان هؤلاء المتحدثين الأصلية لم يسبق لها أبداً أن وفرت مثل هذه الحماية للأديان الأخرى، بمفهوم هؤلاء لا يوجد

تناقض بين هذه المواقف ، ففي حين يجب صيانة « الايمان الحقيقي » المبني على الوحي الالهي الأخير من الاهانة والشتم ، فان تلك العقائد المزيفة أو الناقصة لا تملك الحق في حماية كهذه .

هنالك صعوبات أخرى في قبول تفسير كون الامبريالية سبباً للعدائية الاسلامية ، حتى لو أننا عرّفنا الامبريالية بمفهوم ضيق خاص على أنها تعني غزو وهيمنة غير المسلمين على البلدان الاسلامية . ولنفترض أن العدائية وجهت ضد الامبريالية بهذا المعنى ، فلِمَ هي مستعرة ضد أوربا الغربية ـــ التي تخلت عن مستعمراتها الاسلامية ـــ اكثر منها ضد روسيا ـــ التي لا تزال تحكم بقبضة حديدية ملايين المسلمين المعارضين لها وتسيطر على مدن وبلدان اسلامية عريقة ولماذا ينبغي أن توجه هذه العدائية ضد الولايات المتحدة ـــ التي ، وبغض النظر عن الأقلية المسلمة في الفيلبين ، لم تحكم مطلقاً أي شعب مسلم ـــ في حين أن آخر الامبراطوريات الأوربية القائمة حتى الآن والتي تهيمن على بقاع اسلامية ويحكمها السوفيت لم تكن هدفاً للانتقاد والهجوم وكانت على الأغلب مستثناة من هذا الحقد؟ وحتى في قمعه مؤخراً للثورات الاسلامية التي قامت في جمهوريات جنوب ووسط آسيا السوفياتية لم يتعرض الاتحاد السوفياتي إلا لعبارات معتدلة من التعنيف .

بالاضافة الى غياب أي تصريح بالرغبة في التدخل فيما دعي على استحياء بـ « الشؤون الداخلية » للاتحاد السوفياتي وما اعتبر على أنه مطلب صيانة الأمن والحفاظ على سلامة الحدود . على أن هناك سبباً واحداً لهذا التحفظ المثير للاستغراب يكمن في طبيعة الأحداث في أذربيجان السوفياتية . فالاسلام رغم انه يشكل بوضوح عنصراً هاماً وأساسياً من مكونات الهوية الأذربيجانية فانه عنصر غير حاسم حالياً . كما أن الحركة الأذربيجانية تلتقي مع الحركات القومية الأوربية أكثر مما تلتقي مع الحركات الأصولية الاسلامية . مثل هذه الحركة لن تثير الحماس لدى القادة الايرانيين ، بل من المحتمل أن تقلقهم باعتبار أن اقامة دولة ديمقراطية حقيقية تدار من قبل الأذربيجانيين أنفسهم ربما تمتلك قوة جذب كبيرة لاخوانهم في الجنوب أي في أذربيجان الايرانية .

ثمة سبب آخر لفتور الاهتمام بالخمسين مليون مسلم ـــ أو اكثر ـــ الواقعين تحت الحكم السوفياتي ربما يعود الى موازنة المخاطر والفوائد. فالاتحاد السوفياتي قريب، وله حدود مشتركة طويلة مع تركيا، وايران، وأفغانستان. في حين أن الولايات المتحدة ـــ وحتى أوربا الغربية ـــ بعيدتان جداً. اضف الى ذلك عدم قيام السوفييت بقمع الاضطرابات بمدافع الماء أو بالرصاص المطاط على مشهد من كاميرات التلفزيون أو اطلاق سراح الموقوفين بكفالة مع السماح لهم بالتحدث مع وسائل الاعلام المحلية والأجنبية. والسوفييت يتجاهلون مواجهة النقاد الاكثر قسوة في أوقات حرجة ولا يستميلونهم عبر مواعظ أو محاضرات أو تعهدات مكتوبة بل على النقيض من ذلك، فان إشارتهم الى عدم الرضا للانتقاد كانت غير مستساغة.

ولكن مخاوف الانتقام رغم أهميتها فهي ليست السبب الوحيد، وربما ليست السبب الأساسي، لذلك الاهتمام الثانوي نسبياً الموجه للاتحاد السوفياتي مقارنة بالغرب في الأدبيات الأصولية. وبعد ذلك كله فإن التغييرات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية التي غيرت غالبية العالم الاسلامي ومنحت سبباً لهذا الشجب المعمم للشرور الغربية ـــ الاستهلاكية والعلمانية مثلاً ـــ انطلقت من الغرب وليس من الاتحاد السوفياتي. فلا أحد يمكنه أن يصم السوفيات بالاستهلاكية، فماديتهم فلسفية ـــ ولنكون دقيقين ـــ جدلية. ولكن لم يكن بامكانها عملياً سوى تحقيق القليل ـــ وربما لا شيء ـــ حول توفير الأشياء الجيدة للحياة. وهذا الأمر يمثل شكلاً آخر من المادية يصمها خصومها بالغباء الشديد. ان الاستهلاكية وثيقة الارتباط بالغرب الرأسمالي وليس بالشرق الشيوعي، الذي مارس أو فرض على رعاياه على الأقل درجة من التقشف لا بد أن تنال اعجاب القديسين المتصوفة، والسوفييت أيضاً لم يكونوا ـــ الى زمن قريب جداً ـــ معرضين للاتهام بالعلمانية.. تلك التهمة العظمى الأخرى التي يوجهها الأصوليون للغرب. فرغم الالحاد ـــ هم في الحقيقة ليسوا ملحدين، فهم خلقوا جهاز دولة موسعاً متقناً ليفرضوا عبادة آلهتهم، جهاز بأرثوذكسيته وكهنوتيته ليعرفوا ويفرضوا

تلك العبادة، ومحاكم تفتيش مسلحة ليكتشفوا ويستأصلوا الهرطقة — فان فصل الدين عن الدولة لا يعني تأسيس اللادينية من قبل الدولة، ولا يعني أيضاً الفرض القسري للفلسفة المعادية للدين. فالعلمانية السوفياتية، مثلها مثل الاستهلاكية السوفياتية، لا تحمل أي اغراء للجماهير المسلمة، وهي تخسر ما كانت تشكله من بريق عند بعض المفكرين المسلمين. واكثر من ذلك فان الرأسمالية والديمقراطية الغربية هما اللتان تمثلان البديل الحقيقي والجذاب لطرق التفكير والمعيشة التقليدية. والقادة الأصوليون ليسوا مخطئين أبداً في تصورهم أن الحضارة الغربية تشكل التحدي الأخطر الذي يواجه مسعاهم في سبيل بعث واحياء نمط الحياة الذي يرغبونه لشعوبهم.

صراع الحضارات

قد تكون جذور العلمانية تأسست في ظرفين: في التعاليم المسيحية المبكرة، وأكثر من ذلك التجربة التي أوجدت مؤسستين منفصلتين: الكنيسة والدولة، وفيما بعد في الصراعات المسيحية التي قادت المؤسستين بشكل منفصل. المسلمون أيضاً كانت عندهم خلافاتهم الدينية، ولكن لم يكن هناك ما يقارب ضراوة الصراعات المسيحية بين البروتستانت والكاثوليك التي دمرت أوربا المسيحية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وأجبرت المسيحين في يأس قاتل على أن يطوروا عقيدة فصل الدين عن الدولة. لقد بدا انه فقط عبر تجريد المؤسسات الدينية من قوتها القسرية تستطيع النصرانية كبح التعصب القاتل والاضطهاد اللذين مارسهما المسيحيون ضد أتباع الديانات الأخرى ولا سيما ضد اولئك الذين اتبعوا أشكالاً أخرى من ديانتهم الخاصة.

المسلمون لم يخوضوا مثل هذه التجربة وبالتالي لم يكن هناك ضرورة ليطوروا مثل هذه العقيدة، لم يكن هناك حاجة للعلمانية في الاسلام، وحتى التعددية عندهم كانت جد مختلفة عن تلك التي سادت الامبراطورية الرومانية الوثنية، والتي وصفها ادوارد غيبون بحيوية كبيرة عندما لاحظ أن:

« الصيغ المتعددة التي سادت العالم الروماني كانت كلها صحيحة على حد سواء بنظر الناس ، وكلها زائفة على قدم المساواة بنظر الفيلسوف ،وكلها مفيدة بنظر الحاكم » .

فالاسلام لم يكن مضطراً مطلقاً ، لا نظرياً ولا عملياً ، أن يمنح مساواة كافة تامة لأولئك الذين اتبعوا عقائد أخرى ومارسوا اشكالاً أخرى من العبادة . والاسلام — على أية حال — منح درجة من التسامح النظري والعملي لأولئك الذين يتبعون حقائق جزئية ، وهذه الدرجة من التسامح نادراً وجد ما يوازيها في العالم المسيحي حتى تبنى الغرب نوعاً من العلمانية في أواخر القرن السابع عشر ، والقرن الثامن عشر .

في البداية ، كانت استجابة المسلمين للحضارة الغربية نوعاً من الاعجاب والمحاكاة : احترام كبير لانجازات الغرب ورغبة في تقليدها وتبنيها . هذه الرغبة نبعت من الادراك الحاد والمتنامي بضعف وفقر وتخلف العالم الاسلامي مقارنة بالغرب المتقدم . التفاوت ظهر أولاً في ميدان الحرب ، إلا انه سرعان ما انتشر الى بقية النشاطات الانسانية . والكتاب المسلمون شاهدوا ووصفوا غنى وقوة الغرب ، علمه وتقنيته ، منتوجاته واشكال حكوماته ، ولبرهة من الزمن كان ينظر الى سر نجاح الغرب بكونه يكمن في انجازين : التقدم الاقتصادي وخصوصاً الصناعة ، والمؤسسات السياسية وخصوصاً الحرية . وعدة أجيال من المصلحين و«المتعصرنين» حاولوا أن يكيفوا وينتجوا هذين الانجازين في بلدانهم ، على أمل منهم أنهم بهذا سيكونون قادرين على تحقيق المساواة مع الغرب ، وربما على احياء تفوقهم المفقود .

أما في وقتنا الراهن فقد أعطيت حالة الإعجاب والمحاكاة نوعاً من الرفض والعدائية . يمكن التأكيد الى حد ما أن هذه العدائية نتجت عن شعور بالاذلال والادراك المتنامي بين وارثي حضارة عريقة وفخورة، وطالما كانت مهيمنة، بأنهم سُبقوا — بل وسحقوا — من قبل أولئك الذين طالما اعتبروهم مرؤوسيهم، وجزئياً فقد نتجت هذه الحالة عن الأحداث في العالم الغربي نفسه . احدى هذه العوامل ذات الأهمية الكبرى كانت بالتأكيد الأثر الذي خلفته الحربان الانتحاريتان

اللتان قسمت فيهما الحضارة الغربية نفسها إلى قسمين مسببة دماراً لا يوصف لشعوبها وغيرها من الشعوب ، الأمر الذي دفع الميالين الى القتال في كلا الجانبين الى شن حملة دعاية هائلة ــ في العالم الاسالمي كما في غيره ــ استهدفت الحاق الخزي بالطرف الآخر وتشويه صورته . وهذه الرسالة التي بعثوها وجدت آذاناً مصغية من أولئك الذين لم يكونوا على أية حال سعداء من الغرب بسبب خبراتهم السابقة .

لقد جلبت السلع الصناعية والمالية والتجارية المنتجة في الغرب غنى فاحشاً ، لكنه تراكم لمصلحة الغربيين الدخلاء والأقلية المتغربة ، وقلة قليلة من السكان المسلمين . وبمرور الوقت فإن هذه الأقليات توسعت وكثرت لكنها بقيت معزولة عن الجماهير ، متميزة عنها حتى بلباسها وبأسلوب حياتها . وبشكل محتوم أصبح هؤلاء ينظر اليهم على أنهم عملاء ووكلاء لما أصبح يعتبر مرة أخرى عالماً معادياً . حتى المؤسسات السياسية التي استوردت من الغرب ، والتي كانت عندهم موضع عدم ثقة باعتبارها تدار ليس من الغربيين الأصليين بل من وكلائهم المحليين المتفرنجين ، هذه المؤسسات هوجمت من قبل المصلحين المسلمين المتحمسين . أما أولئك المتغربون ، الذين كانوا يعملون في أوضاع خارج نطاق سيطرتهم ، فقد استخدموا مناهج مستوردة وغير ملائمة ولم تستوعب بشكل تام ، وبالتالي كانوا غير قادرين على التغلب على أزمات التطور المتسارعة وتم نبذهم واحداً وراء الآخر . ولجمهور واسع من الشرق أوسطيين ، فان المناهج الاقتصادية الغربية جلبت الفقر ، والمؤسسات السياسية الغربية جلبت الاستبداد ، وحتى أساليب الحرب الغربية جلبت الهزيمة . وانه لمن غير المدهش انه وجد عدد كبير من الناس يحبذون الاصغاء الى تلك الأصوات التي تقول لهم : إن الأساليب الاسلامية هي الأفضل ، وإن نجاتهم تكمن فقط في أن يقذفوا جانباً تلك البدع الوثنية التي جاءهم بها دعاة التغريب المصلحون ، وأن يعودوا إلى الصراط المستقيم الذي وصفه الله لشعبه .

وأخيراً ، صراع الأصوليين ضد عدوين : العلمانية والحداثة . الحرب ضد

العلمانية هي حرب متعمدة وصريحة ، وهنالك الان سيل طافح من الأدبيات التي تدين العلمانية باعتبارها شراً رجيماً وقوة وثنية جديدة في العالم الحديث ، وهذه الأدبيات تنسب العلمانية بصيغ مختلفة إلى اليهود ، والغرب ، والولايات المتحدة .

أما الحرب ضد الحداثة فهي في غالبيتها ليست واضحة ولا صريحة ، وهي موجهة ضد كل ذلك التغيير الذي أصاب العالم الاسلامي في القرن الماضي وألحق الأذى بالبنيات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وحتى الثقافية للبلدان الاسلامية . وهكذا ساهمت الأصولية الاسلامية في تأجيج امتعاض وغضب الجماهير ضد تلك القوى التي استهترت بقيمها وبولاءاتها التقليدية المتوارثة ، وبالمحصلة سلبتها ايمانها ،وطموحها ، وكرامتها ، بل وحتى انها سلبتها أسباب رزقها .

هناك شيء ما في الثقافة الدينية الاسلامية ألهم ، حتى أولئك الناس الأكثر تواضعاً وسذاجة ، شعوراً بالكرامة والاحترام والتعالي تجاه الآخرين بشكل نادر جداً، قلّ ان نجحت الحضارات الأخرى في تحقيقه. ولا يزال هذا الاحساس بالكرامة والشموخ تجاه الآخرين يعطي ــ خاصة في لحظات الجيشان والتمزق حينما يثور الغضب ــ الوسيلة لخليط ممزوج من الكراهية والمقت الذي يدفع حتى الحكومات العريقة والمتحضرة ، وحتى المتحدثين باسم ذلك الدين العظيم ليناصروا اعمال الخطف والاغتيال ويحاولوا أن يجدوا في سيرة نبيّهم استحساناً وسوابق لأعمال كهذه . إن غريزة الجماهير الفطرية في عزو المنابع الجوهرية لهذه التغييرات العنيفة والمفاجئة إلى الغرب ، وفي عزو سبب تمزق حياتهم القديمة الى الهيمنة الغربية والتأثير الغربي والمثال والقدرة الغربيين ، هذه الغريزة ليست بالتأكيد أمراً زائفاً .

وباعتبارها الوريث الشرعي للحضارة الغربية والقائد الأوحد المميز للغرب ، فان الولايات المتحدة ورثت وأصبحت القبلة التي توجه ضدها تلك الكراهية وذلك الامتعاض المكبوتان ، وهذان مثالان قد يفيان بالغرض :

١ ــ في تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٩ : هاجم حشد من الناس السفارة

الأمريكية في اسلام آباد ـــ الباكستان وأحرقوها . السبب المعلن للغضب كان استيلاء مجموعة من المنشقين المسلمين على المسجد الحرام في مكة ، في حادث لم يشهد أي تورط أمريكي على الاطلاق .

٢ ـــ وبعد عشر سنوات تقريباً وفي شباط ـــ فبراير ١٩٨٩ ، ومرة أخرى في اسلام آباد ، هوجم المركز الثقافي الأمريكي من قبل حشود غاضبة ، وهذه المرة ليحتجوا على نشر كتاب سلمان رشدي « الآيات الشيطانية » . مع العلم أن رشدي مواطن بريطاني من أصل هندي ، وكتابه نشر قبل ذلك التاريخ بخمسة أشهر في بريطانيا . ولكن السبب الذي أثار غيظ الجماهير وكذلك الفتوى الشهيرة لآية الله الخميني باهدار دم المؤلف كان نشر الكتاب في الولايات المتحدة .

يجب أن يكون واضحاً الآن أننا نواجه تياراً وحركة تتجاوزان بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تلاحقهما . ان هذا ليس شيئاً أقل من صراع الحضارات ، انه رد فعل ـــ ربما غير عقلاني ـــ لكنه تاريخي لمنافس قديم موجه ضد ميراثنا اليهودي ـــ المسيحي ، وضد حاضرنا الراهن ، وضد امتدادهما العالمي . وانه من الأهمية بمكان ألا نسمح من جانبنا بجرنا واستفزازنا للقيام برد فعل تاريخي مواز ـــ الا انه غير عقلاني ـــ ضد ذلك المنافس .

لم تلاق كل الأفكار المستوردة من الغرب ،سواء من طريق الغربيين الدخلاء أو وكلائهم المتغربنين ، الرفض . بل ان بعض هذه الأفكار حظيت بالقبول حتى من قبل أشد الناس تطرفاً ، وعادة دون أن يعرفوا مصدرها ، وسببت هذه الأفكار بحراً من التغييرات نادراً ما كان غنياً لكنه غالباً ما كان غريباً . احدى هذه الأفكار : الحرية السياسية ، مع الارتباط القومي ، وعمليات التمثيل البرلمانية والانتخاب ، والحكومات الدستورية . حتى الجمهورية الاسلامية الايرانية لها الآن دستور مكتوب ومجلس نواب منتخب ، بالاضافة الى هيئة دينية حاكمة . وليس شيء من ذلك كله كان وارداً في التعاليم الاسلامية في الماضي . كل هذه المؤسسات اقتبست بوضوح من النماذج الغربية . البلدان الاسلامية تبنت بعض

العادات الثقافية والاجتماعية الغربية وبعض الرموز التي تمثلها. وعلى سبيل المثال الملابس التي تنتشر بين الذكور بوضوح وبشكل أقل بين الفتيات. ومما يلفت النظر في المجال العسكري استخدام الأسلحة الغربية. كالمدافع والدبابات والطائرات التي أصبحت ضرورة عسكرية، ومع ذلك فان استخدام الألبسة التقليدية المحسنة والقلنسوات والعمائم هو خيار ثقافي. من الدساتير الى الكوكاكولا، من الدباباتث والتلفزيونات الى القمصان والرموز والمنتوجات الصناعية، ومن خلال كل ذلك: الأفكار الغربية بقيت محتفظة ببريقها.

الحركة التي تدعى هذه الأ يام بالأصولية ليست هي النموذج الاسلامي الوحيد. هناك نماذج أخرى متنورة ومتسامحة يمكن أن تساعد على الهام الانجازات العظيمة للحضارة الاسلامية في الماضي. ونحن نأمل أن هذه النماذج سوف تنتصر مع مرور الوقت. ولكن قبل أن تحسم هذه المسألة سيكون هناك صراع قاس لا نستطيع أن نفعل تجاهه سوى القليل ان لم يكن لا شيء، حتى أن مجرد المحاولة يمكن أن تسبب ألماً، لأن القرار بذلك يجب أن يصدر من المسلمين أنفسهم. من جانبنا ينبغي علينا أن نتخذ كل الاحتياطات لنتجنب خطر عهد جديد من الحروب الدينية، مترفعين عن اثارة الخلافات أو احياء الاحقاد القديمة.

لمثل هذه النهاية يجب أن نناضل لانجاز ادراك أفضل وتحقيق ثقافات سياسية ودينية أخرى من خلال دراسة تاريخ المسلمين وأدبهم، وإنجازاتهم. وفي نفس الوقت بامكاننا أن نأمل انهم من جانبهم سوف يحققون تفهماً أفضل لنا، لتاريخنا وأدبنا وانجازاتنا. ونأمل خصوصاً أن يتفهموا ويحترموا تصورنا الغربي للعلاقة المناسبة بين الدين والسياسة، حتى وان لم يختاروا مثل هذا التصور لأنفسهم.

لتوضيح هذا المفهوم فانني سوف انهي ـ كما بدأت ـ مقالي باقتباس من ـ رئيس أمريكي، لكنه هذه المرة ليس مشهوراً بحق كتوماس جيفرسون، بل انه مهمل دون وجه حق وهو جون تايلر الذي كتب في رسالة تحمل تاريخ ١٠ تموز

١٨٤٣ ، يقول ببلاغة رسولية واصفاً مبدأ الحرية الدينية : « لقد خاضت الولايات المتحدة غمار تجربة نبيلة وعظيمة ، والتي نؤمن بخطرها في حال غيابها ، وهي فصل الكنيسة عن الدولة . لا مؤسسات دينية توجد بيننا بقوة القانون . الضمير يترك حراً من كل ما يقيده ، ولكل انسان الحق بعبادة خالقه حسبما يعتقد أنه الحق . مكاتب الدولة مفتوحة للجميع بشكل متساو . لا ضرائب تدفع للكهنوتيين ، وحكم الانسان قابل للخطأ ولا يجوز أن يعامل كأنه معصوم عن الخطأ . المحمدي المسلم اذا جاء بيننا فله امتياز مضمون بنص الدستور أن يعبد ربه تبعاً لأحكام القرآن . والهندي الشرقي له أن يشيد مقاماً لبراهاما اذا كان ذلك يجعله سعيداً . فروح التسامح مغروسة في مؤسساتنا السياسية . العبري المضطهد والمسحوق في بقاع أخرى يقيم مسكنه بيننا دون أي خوف ، ورعاية الحكومة توفر له الحماية والعناية . ان نظام حكومتنا الحرة سيكون ناقصاً لو لم يخض غمار هذا التجربة العظيمة التي مررنا بها والثمار الطيبة التي جنيناها منها .

ربما يُضطهد الجسد ، وربما يغل ، ومع ذلك يبقى حياً . ولكن اذا قيّد عقل الانسان فان حيويته وقدراته تفنى . ولا يبقى على الأرض سوى الأرضي . فالعقل ينبغي أن يبقى طليقاً حراً كالنور والهواء».

الاسلام والغرب

ادوارد سعيد [١]

في محاولة لابراز المصادر البديلة للطاقة واثبات تلك الصورة عند الأمريكيين ، قامت شركة اديسون المتحدة ـــ نيويورك في صيف ١٩٨٠ بنشر دعاية تلفزيونية مثيرة ، اذ عرضت لقطات حية لعدد من الشخصيات الرفيعة المستوى التي يمكن التعرف اليها على الفور من أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط أو بك من أمثال زكي عبده اليماني والعقيد معمر القذافي وشخصيات عربية أخرى أقل شهرة ترتدي العباءات ، تتداخل بينها صور ولقطات حية لشخصيات جية ترتبط في ذهن المشاهد بالنفط ، وكانت تطغى على جميع الصور الأخرى لقطة للخميني. ولم يذكر اسم أي شخصية من اصحاب الصور غير أن الاعلان يخبرنا منذراً ان هؤلاء الرجال يسيطرون على مصادر النفط بالنسبة لأمريكة. ولا يورد الصوت الوقور الجاد المرافق للصور أي ذكر الى هوية هؤلاء الأشخاص أو مراكزهم أو أصولهم ، مما يترك انطباعاً في نفوس المشاهدين بأن هؤلاء ما هم إلا جماعة من الأشرار وضعوا الامريكيين بأسرهم في قبضة متوحشين ساديين لا ضابط لهم. وكان كافياً أن يظهر أولئك الأشخاص بالصورة التي بدوا فيها في الصحف والتلفزيون حتى يتولد في نفوس المشاهدين الامريكيين مزيج من مشاعر الحقد

---

(١) كاتب اميركي من اصل فلسطيني.

والخوف والذعر. وقد أثارت شركة أديسون المتحدة هذا المزيج من العواطف بسرعة كبيرة واستغلته لأسباب ودوافع تجارية داخلية، وكانت في ذلك منسجمة مع ما جاء في توصية لستيوارت أيزنستات مستشار الرئيس الامريكي الأسبق جيمي كارتر. اذ انه حث الرئيس على «اتخاذ خطوات حاسمة عن طريق تعبئة الأمة حول أزمة حقيقية وعدو واضح هو منظمة الاوبك».

ويطرح الاعلان التجاري الذي عرضته شركة أديسون المتحدة قضيتين تشكلان معاً موضوع هذه المقالة: أولاهما هي الاسلام دون ريب، بل صورة الاسلام في الغرب عموماً وعلى وجه التخصيص في الولايات المتحدة. والقضية الثانية هي استخدام تلك الصورة في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة. وسنتبين ان هاتين القضيتين معاً مترابطتان بطرق من شأنها أن تميط اللثام في نهاية الأمر عن الغرب والولايات المتحدة كما تكشفه عن الاسلام وان يكن الأمر أقل اثارة وواقعية بالنسبة للاسلام.

ولعل من المناسب ان نلقي نظرة على تاريخ العلاقات والصلات بين الاسلام والغرب المسيحي قبل أن نبدأ بتفحص المرحلة الراهنة.

فمنذ نهاية القرن الثامن عشر، على أقل تقدير، سيطر على ردود الفعل الغربية نحو الاسلام نوع من التفكير المختزل والبسيط في جوهره، وهذا النوع من التفكير لا نزال الى يومنا هذا نملك القدرة على تسميته بالاستشراق. وقد سبق لي أن ذكرت أن الأساس العام للفكر الاستشراقي يرتكز إلى جغرافية خيالية ليست لها جذور على أرض الواقع. إلا أنها ثنائية خطيرة تقسم العالم الى شطرين غير متساويين، اكبرهما وهو الشطر المختلف يدعى الشرق. ويدعى الآخر الغرب وهو الشطر الذي يسميه الأمريكيون «عالمنا». ويشيع مثل هذا التقسيم دائماً حين تفكر حضارة معينة أو مجتمع معين بحضارة أخرى مختلفة أو مجتمع آخر مختلف. إلا أن ما يلفت النظر هنا أن الشرق، حتى اذا اعتبرناه جزءاً متخلفاً من العالم، قد أسبغ عليه دوماً حجم أكبر وقدرة كامنة أكثر قوة من الغرب (وهذه القدرة توصم

عادة بأنها تخريبية) وانطلاقاً من الموقف الذي ينظر الى الاسلام بصفته ينتمي الى الشرق فقد كان قدر الاسلام الخاص أن ينظر اليه في المقام الأول كأنه كتلة صلدة واحدة لا تمايز فيها أو تعدد. ثم ان ينظر اليه بنوع متميز جداً من العداء والخوف.

ولا يغيب عن بال أحد أن الكثير من الدوافع الدينية والنفسية والسياسية تقف وراء هذا الموقف. لكن هذه الدوافع جميعاً تنبثق من الشعور بأن الاسلام لا يمثل منافساً رهيباً فحسب، بل انه يمثل كذلك تحدياً متأخراً للمسيحية.

ابان القرون الوسطى وفي القسم الأول من عصر التنوير الأوربي هيمن الاعتقاد بأن الاسلام دين شيطاني رجيم أبرز صفاته النفاق والتجديف والغموض. ولم يكن أمراً ذا بال أن المسلمين يعتبرون محمداً نبياً لا إلهاً. فالشيء الهام بالنسبة للمسيحيين هو أن محمداً نبي كذاب، داعية تفرقة وتهيمن عليه الشهوانية والنفاق، وكثيراً ما وصم بأنه عميل للشيطان. ولم يكن هذا الموقف موقفاً عقائدياً خالصاً، بل ان الأحداث الواقعية جعلت من الاسلام قوة سياسية لا يستهان بها. اذ ان الجيوش الاسلامية واساطيلها هددت أوربا على مدى مئات من السنين، فحطمت ثغورها واحتلت مناطقها. وكأنما قد بزغ في الشرق مذهب جديد من المسيحية اكثر شباباً وحيوية مما هو في الغرب. وهذا المذهب الجديد مسلح بعلوم الاغريق القدامى، ويستمد طاقته الحيوية الفاعلة من عقيدة بسيطة اتصفت بالشجاعة والاقدام والجهاد. وباشر عمله في تهديم المسيحية وتخريبها. ولقد استمر الخوف من «المحمدية» حتى بعد أن دخل الاسلام مرحلة الانحطاط في نفس الوقت الذي دخلت فيه أوربا مرحلة النهضة. وربما مرد هذا الخوف يعود الى قرب عالم الاسلام الى أوربا، فالاسلام قريب جداً وعلى تماس مباشر معها على العكس من بقية الأديان. وهذا الجوار القريب أثار ذكريات الاعتداء والاحتلال والحروب الاسلامية ضد أوربا. كما انه أعاد الى الذاكرة مرة بعد أخرى قوة الاسلام الكامنة المؤهلة لارباك الغرب وازعاجه المرة تلو المرة. وقد أمكن اعتبار غيره من الحضارات الشرقية الكبرى ـــ كالحضارة الهندية والصينية ـــ مغلوبة على

أمرها وبعيدة، ولذلك فهي لا تمثل مصدر قلق دائم . لكن الاسلام يتميز في انه لم يخضع للغرب خضوعاً مطلقاً . ولذلك حين بدأت أسعار النفط في أوائل السبعينات في الزيادة بدا وكأن العالم الاسلامي على وشك أن يعيد انتصاراته السابقة . ومرة جديدة أخذ الغرب بأسره يرتعد خوفاً .

عندما احتلت ايران واجهة الأحداث عام ١٩٧٨ تولد في نفوس الامريكيين شعور متزايد بالقلق والانفعال . والواقع أن هذا الاهتمام الامريكي المكثف الذي اولي لايران لم ينله غير عدد قليل من الشعوب التي تبعد عن الولايات المتحدة بعداً شاسعاً مثل إيران . ولم يسبق للامريكيين أبداً أن بدوا عاجزين ومشلولي الحركة ولا يملكون القدرة على ايقاف مسلسل الأحداث الدرامية الذي تتوالى حدثاً وراء الآخر . ولم يتمكن الأمريكيون من نسيان ايران ذلك البلد الذي اقتحم عليهم حياتهم على أصعدة متعددة اقتحاماً مخيفاً متحدياً جريئاً . ولا ننسى أن ايران كانت مورداً رئيسياً للنفط ابان فترات قلّت فيها الطاقة . كما ان ايران تقع في منطقة تعتبر اجمالاً غير مستقرة وذات أهمية حيوية استراتيجية . ثم انها كانت حليفاً مهماً ، ثم فقدت نظامها الامبراطوري وجيشها وقيمتها في الحسابات الامريكية العالمية خلال سنة واحدة فحسب من انتفاضة ثورية عارمة لم يسبق لها مثيل منذ تشرين الأول ــ اكتوبر ١٩١٧ . كان هناك نظام جديد يدعي انه اسلامي ويظهر بصورة النظام الشعبي المعادي للامبريالية . وسيطرت صورة آية الله الخميني وحضوره على وسائل الاعلام التي فشلت في حل لغزه أو فهمه وان كانت اتفقت على انه صلب غير مرن قوي غاضب أشد الغضب على الولايات المتحدة الأمريكية . واعقب ذلك في ٤ تشرين الثاني ــ نوفمبر قيام مجموعة من الطلاب باحتلال سفارة الولايات المتحدة في طهران بعد لجوء الشاه الى الولايات المتحدة في ٢٢ تشرين اول ــ اكتوبر ١٩٧٩ وقام هؤلاء الطلاب باحتجاز الموظفين والرعايا الامريكيين كرهائن .

ان ردود الفعل على ما جرى في ايران لم تنشأ من عدم ، بل هناك في وعي الجمهور الثقافي ذلك الموقف القديم من الاسلام والعرب والشرق بشكل عام ،

وهذا الموقف أسميه الاستشراق. فصورة الاسلام هي واحدة ثابتة لا تتغير من أي زاوية نظرت اليها ومهما تكن المادة التي تعرضها. يستوي في ذلك الكتب المدرسية المقررة في مادة التاريخ والأشرطة الهزلية والمسلسلات التلفزيونية والافلام الكوميدية والروايات الحديثة التي نالت ثناء النقاد كرواية ف. س. ينبول: انعطاف في الجدول. ورواية جون أبدايك: الانقلاب. وتنبثق هذه الصورة الموحدة وتستمد مادتها من المفهوم القديم للاسلام. ولذلك يكثر رسامو الكاريكاتور من تصوير المسلمين كموردي نفط، وارهابيين، وغوغاء متعطشين للدماء. ونجد اضافة الى ذلك أن الهامش المتاح للتعاطف مع الاسلام هو هامش ضيق جداً، سواء في ذلك ما تتيحه الحضارة بشكل عام أو في نطاق البحث والنقاش حول غير الغربيين بشكل أخص. والمجال يضيق بالحديث أو حتى مجرد التفكير المتعاطف مع الاسلام ناهيك عن محاولة عرضه، أو عرض أي شأن اسلامي عرضاً متعاطفاً. ولو طلبنا تسمية اسم كاتب اسلامي حديث فمن المرجح أن يورد أغلب الناس اسم جبران خليل جبران الذي لم يكن مسلماً. أما الخبراء الأكاديميون المختصون بدراسة الاسلام فقد تناولوه ضمن اطار ايديولوجي مصطنع، أو اطار مليء بالانفعالات العاطفية والتحيز الدفاعي بل الاشمئزاز. وقد جعلت هذه الخلفية وهذا الاطار فهم الاسلام أمراً عسير المنال. ولو أجرينا تقويماً للدراسات المتعمقة والمقابلات التي قامت بها وسائل الاعلام حول الثورة الايرانية في ربيع عام ١٩٧٩ لما لاحظنا إلا توجهاً أو ميلاً ضعيفاً جداً للقبول بالثورة نفسها على أساس أنها اكبر من مجرد هزيمة للولايات المتحدة الامريكية ـــ وهذا بالفعل شيء حقيقي ـــ أو انتصار الظلمة على النور.

ونشير هنا الى الدور الذي يلعبه ف. س. ينبول باعتباره يوضح هذا الاتجاه العدائي العام نحو الاسلام. فقد تحدث في مقابلة حديثة نشرت في نيوزويك انترناشيونال ١٨ آب ـــ أغسطس ١٩٨٠ عن كتاب يقوم باعداده عن الاسلام وقال: «ان المبادىء الأساسية في الاسلام تفتقر الى المضمون الفكري، ولذلك فلا بد أن ينهار». ولم يفصح عن ماهية المبادىء الأساسية في الاسلام كما لم

يحدد ما يعنيه بها ، كما لم يفصح عن نوع المضمون الفكري الذي يشير اليه . إلا أننا لا نشك انه يقصد ايران ، كما انه يقصد بعبارات غامضة مماثلة جميع مظاهر التيار الاسلامي المناهضة للامبريالية الذي اجتاح العالم الثالث عقب الحرب العالمية الثانية . وهذه الموجة يكنُّ لها ينبول شعوراً خاصاً من النفور العميق . وفي روايتيه الأخيرتين فدائيون وانعطاف في الجدول يطرح ينبول قضية الاسلام . ويشكل بعضاً من الاتهام، الذي يتهم به ينبول العالم الثالث (وهو اتهام رائج عند القراء الغربيين الليبراليين) ، ما يكدسه جنباً الى جنب من رذائل ، وفساد مجموعة من الحكام الغربيي الأطوار ، ونهاية الاستعمار الأوربي ، والجهود التي تلت التخلص من الاستعمار والتي بذلت لاعادة انشاء وتعمير المجتمعات المحلية ، معتبراً اياها جميعاً أمثلة تدل على الاخفاق الفكري الشامل في افريقية وآسية. ويلعب الاسلام الدور الرئيسي في هذا الإخفاق، سواء كان المقصود بذلك الألقاب الاسلامية التي يستخدمها الفدائيون في الهند أو في بقايا تجارة الرقيق الافريقية . فالاسلام يشمل اذن ، بالنسبة لينبول وقرائه ، كل ما يبغضونه انطلاقاً من العقل الغربي المتمدن .

كأن التمييز بين العاطفة الدينية والنضال في سبيل قضية عادلة والضعف الانساني العادي والتنافس السياسي وبين تاريخ النساء والرجال والمجتمعات محكومٌ عليه باعتباره تاريخاً للرجال والنساء والمجتمعات لا يكون من الممكن أن يعالجه الروائيون والصحافيون وصانعو السياسة والخبراء موضوع الاسلام ، أو بالأحرى الاسلام الفاعل الآن في ايران وغيرها من العالم الاسلامي . وكأن الاسلام يبتلع جميع مظاهر العالم المسلم المتنوعة فيحيلها بأجمعها الى جوهر خاص شرير مسلوب القدرة على التفكير . ولا يمكن أن ينجم نتيجة لذلك تحليل وتفهم ، بل نجد بدلاً من ذلك ، أدنى أشكال التقسيم إلى نحن مقابل هم ، وأشدها قصوراً واعوجاجاً . وكل ما يقوله الايرانيون والمسلمون عن التزامهم بالعدالة وتاريخ معاناتهم للقمع ورؤاهم لمجتمعاتهم يبدو كأنه خارج نطاق الموضوع ولاعلاقة له به . فقد صرفت الولايات المتحدة النظر عنه واستبدلت بالاهتمام به ما تفعله الثورة الاسلامية الآن : كم عدد الذين أعدمهم أتباع الخميني . وكم عدد

الانتهاكات والاعتداءات التي أمر بها آية الله الخميني باسم الاسلام. ومن البديهي انه لا أحد فكر في اقامة المقارنة بين مذبحة جونستاون أو الاثارة المتأججة المدمرة التي نتجت عن الأمسية الموسيقية في سينسيناتي، وبين المسيحية أو الحضارة الغربية أو الأمريكية بصورة خاصة، فمثل هذين التعادل والمقارنة يقتصران على الاسلام وحده.

لماذا يجب اعتبار الاسلام مسؤولاً عن هذا المدى المتسع الشامل من الأحداث السياسية والثقافية والاقتصادية ؟ أي شيء في الاسلام أثار مثل هذه الاستجابة السريعة المنفلتة؟ ما هي اوجه الاختلاف الذي يراه الغربيون بين الاسلام وبقية دول العالم الثالث والاتحاد السوفياتي ؟ هذه الأسئلة أبعد شيء عن أن تكون أسئلة بسيطة. ومن هنا نرى أن نجيب عن كل منها بمفرده مع ايراد الكثير من الشواهد والتمييزات.

ان الأسماء المعممة التي تطلق على حقائق متسعة معقدة غامضة أشد الغموض وان كانت ضرورية لا يكاد يستغنى عنها في نفس الوقت. فاذا كان صحيحاً أن الاسلام اسم معمم غير دقيق ومثقل بالايديولوجيا، فانه من الصحيح أيضاً أن «الغرب» و «المسيحية» يشاطرانه المأزق نفسه. غير انه ليس من الممكن أو من اليسير أن نتجنب هذه الأسماء ـــ التعميمات، لأن المسلمين يتكلمون عن الاسلام والمسيحيين عن المسيحية والغربيين عن الغرب، ويتكلم هؤلاء جميعا عن كل ما عداهم بطرق تبدو مقنعة وصحيحة. وعوضاً عن أن نحاول اقتراح وسائل للتحايل على هذه الأسماء، أرى انه من الأفضل لنا أن نعترف بوجودها، وأنها تستخدم كجزء متكامل في التاريخ الثقافي لا كتصنيفات موضوعية. وعلينا أن نتذكر أن «الاسلام» و «الغرب» وحتى «المسيحية» هي اسماء معممة تؤدي وظيفتين مختلفتين على الأقل وتسفر عن معنيين على الأقل كلما استخدمناها. فهي تؤدي أولاً وظيفة تعريفية بسيطة كأن نقول: الخميني مسلم، والبابا يوحنا بولس الثاني مسيحي. فمثل هذه العبارات تخبرنا عن شيء ما مقروناً بشيء آخر. وعلى

هذا المستوى نستطيع أن نميز بين التفاح والبرتقال كما نميز بين المسلم والمسيحي الى الحد الذي يعلمنا انهما صنفان مختلفان من الفاكهة.

أما الوظيفة الثانية التي تؤديها الأسماء فهي افراز معنى أشد تعقيداً نتيجة لذلك. فالحديث عن الاسلام في الغرب اليوم يحمل في طياته الكثير من المعاني المستقبحة غير المحببة التي سبق وأشرنا اليها. كما سبق لي أن قلت أيضاً انه من المستبعد أن يدل الاسلام على أي معنى يعرفه المرء معرفة مباشرة أو موضوعية. وينطبق الأمر نفسه على استخدامنا لـ «الغرب» كمفهوم. فكم يبلغ عدد الذين يستخدمون هذه التعميمات غاضبين أو جازمين انهم يمسكون بزمام المعرفة الحقيقية بكافة مناحي التقاليد والأعراف والعادات الغربية، أو التشريع الاسلامي، أو اللغات الحية في العالم الاسلامي؟ الجواب طبيعي هم نفر قليل. وذلك لا يمنع الناس من تصنيف «الاسلام» و «الغرب» بمنتهى الثقة.

لذا علينا أن ننظر الى الأسماءهذه بعين جدية مبالية، فبالنسبة لرجل مسلم يتحدث عن الغرب أو لأمريكي يتحدث عن الاسلام تستند هذه الأسماء الى تاريخ طويل من شأنه في نفس الوقت أن يزيدها قوة أو ضعفاً. فقد تمكنت هذه الأسماء المثقلة بالايديولوجيا والعواطف المتأججة أن تمر بتجارب عديدة وتتخطاها وتتكيف مع ما يجدّ من أحداث. وقد اكتسب كل من مفهومي «الاسلام» و «الغرب» زخماً حيوياً جديداً في كل مكان. ويجب أن ننتبه الى أن الغرب، وليس المسيحية، هو دائماً موضع التنافس والعداء ضد الاسلام؟ فلماذا؟ يكمن السبب في أن الغرب اكبر من المسيحية ،دينه الأساسي، وقد تجاوز مرحلتها. أما عالم الاسلام على ما فيه من غنى وتنوع في تاريخه ومجتمعاته ولغاته فلا يزال غارقاً في الدين والبدائية والتخلف. فنحن اذن نجد أن الغرب حديث وأكبر من مجموع أجزائه ومليء بالتناقضات التي تغذيه وتغنيه، لكنه يبقى دائماً غربياً في هويته الحضارية. وبالمقابل نجد أن عالم الاسلام لا يعدو كونه الاسلام الذي من الممكن اختصاره الى عدد ضئيل من الخصائص غير المتغيرة والثابتة، رغم مظاهر

التناقض والتجارب المتنوعة التي قد تبدو حين ننظر اليها نظرة سطحية، غنية متعددة كما هي الحال عليه في الغرب.

تعطينا مقالة نشرتها مجلة الصندي نيويورك تايمز في زاوية «أخبار الأسبوع» بتاريخ ١٤ أيلول ــ سبتمبر ١٩٨٠ نموذجاً حديثاً يوضح ما أشير اليه. كاتب المقالة هو جون كفنر مراسل الصحيفة في بيروت، أما موضوعها فهو مدى التغلغل السوفياتي في العالم الاسلامي. وتتضح فكرته بجلاء من خلال العنوان الذي كّون به مقالته السالفة الذكر: «ماركس والمسجد اقل انسجاماً من أي وقت مضى». وما يلفت النظر هو استخدام كفنر للاسلام ليقيم ترابطاً بين تجريد وواقع معقد أشد التعقيد. وفي حالات شبيهة كان من الممكن أن يعتبر هذا الترابط ترابطاً مباشراً غير مبرر وغير مستساغ. وحتى لو سلمنا جدلاً بأن الإسلام بخلاف غيره من الأديان هو نظام كلي شامل لا يفصل بين الكنيسة والدولة أو بين الدين والحياة اليومية فان كفنر يبرز في المقالة جانباً ليس له شبيه، وقد يكون فعل ذلك بتعمد، في شدة الجهل والتجهيل في جمل على غرار ما يلي:

«إن السبب في تراجع وضمور تأثير موسكو بسيط جداً: ماركس والمسجد لا ينسجمان». [هل نفترض ان ماركس ينسجم والكنيسة و/ أو الهيكل؟].

«فبالنسبة للعقل الغربي، الذي تكيف منذ حركة الاصلاح مع التطورات التاريخية والفكرية التي قلصت دور الدين، يصعب عليه ادراك النفوذ الذي يتمتع به الاسلام [ويفترض انه لم يتكيف مسايراً التاريخ أو الفكر]، هذا النفوذ الذي كان على مدى قرون طويلة، الجانب المركزي في حياة هذه المنطقة من العالم. ويبدو ان قوة الاسلام ونفوذه في انتعاش متصاعد في المرحلة الراهنة على الاقل».

«الاسلام لا يفصل بين الكنيسة والدولة. ذلك انه نظام كلي شامل للعقيدة والعمل سواء بسواء. يتضمن قوانين صارمة تشرع للحياة اليومية بالاضافة الى حافز تبشيري يأمر بقتال الكفرة أو دعوتهم. ومن هنا فإن المتدينين، وعلى الأخص

العلماء ورجال الدين ، وكذلك الجماهير يرون في الماركسية ذات المفهوم الدنيوي الخالص للانسان ، مادة دخيلة مستهجنة ، بل يعدونها بمثابة الهرطقة » .

ان كفنر يتجاهل التاريخ بمنتهى البساطة كما يتجاهل تعقيدات كثيرة من نمط السلسلة المهمة من التوازيات بين الماركسية والاسلام « التي درسها مكسيم رودنسون — في كتابه الماركسية والعالم الاسلامي — محاولاً أن يشرح لماذا شقت الماركسية عدة طرق في المجتمعات الاسلامية عبر السنين » . ليس ذلك فحسب ، بل انه يبني ادعاءه على مقارنة خفية يعقدها بين الاسلام والغرب الذي يتفوق تفوقاً بالغاً بتنوعه وتعدده الذي لا يمكن حصره على الاسلام البسيط والاحادي والجامد غير المتغير والكلي . وما ننبه اليه هنا هو أن بامكان كفنر أن يقول ما يقول دون أي حذر أو تخوف من أن يبدو مخطئاً أو سخيفاً .

الاسلام ضد الغرب : هذا هو الأساس الذي ينبثق منه العديد من التنوعات التي تذهلنا بخصوبتها . ومن الافتراضات التي يشتمل عليها : أوربة ضد الاسلام . أمريكة ضد الاسلام . إلا أن التجارب الملموسة مع الغرب بأكمله تلعب دوراً مهماً أيضاً وينبغي أن نقيم تمييزاً على غاية الأهمية بين الوعي الأمريكي والوعي الأوربي للاسلام . فقد سيطرت انكلترة وفرنسا الى وقت متأخر على امبراطوريات اسلامية شاسعة . ونجد في هاتين الدولتين — وبمستوى أقل في ايطالية وهولندا — تقليداً طويلاً من التجربة المباشرة مع العالم الاسلامي . وينعكس ذلك في نظام تعليمي أكاديمي رفيع المستوى هو الاستشراق . ولقد قام الاستشراق بكل تأكيد في البلاد التي رغبت بامتلاك مستعمرات ،أو التي كانت مجاورة لبلدان اسلامية ، أو التي كانت هي نفسها دولاً اسلامية ذات يوم [مثل ألبانية واسبانية وروسيا الى ما قبل الثورة] . ويضم الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر بسكانه خمسين مليون مسلم . كما انه يحتل منذ أواخر عام ١٩٧٩ دولة افغانستان المسلمة . وبالمقارنة فاننا لا نجد أيًا من الأمور التي ذكرناها تنطبق على الولايات المتحدة ، مع اقرارنا بأنه لم يسبق لمثل هذا العدد الكبير من الأمريكيين أن كتبوا وفكروا أو تكلموا حول الاسلام . ان غياب أي ماض استعماري أو أي

اهتمام طويل العهد بالاسلام في أمريكة يجعل الحوار الحالي اكثر تميزاً واكثر تجريداً وأقل جدة وأصالة. فالقليل جداً من الأمريكيين ــ مقارنة مع غيرهم ــ أقاموا علاقات فعلية مع مسلم حقيقي. أما في فرنسة على سبيل المثال فان الدين الثاني للدولة ــ من الناحية العددية ــ هو الاسلام. وقد لا تكون نتيجة ذلك أن يصبح الاسلام اكثر قابلية للقبول، انما ذلك يجعل الاسلام بالتأكيد أقرب الى الفهم والمعرفة.

كان انفجار الاهتمام الأوربي الحديث بالاسلام جزءاً مما دعي بـ «الانبعاث الشرقي» وهي مرحلة في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر حين اكتشف الباحثون الفرنسيون والانكليز «الشرق» من جديد ــ الذي أصبح يضم الهند والصين واليابان ومصر وبلاد ما بين النهرين والأراضي المقدسة ــ وقد نظر إلى الاسلام، سواء عن حق أو باطل، باعتباره جزءاً من الشرق يشاطره غموضه وأسراره وغرابته وفساده وقوته الكامنة. من الصحيح أن الاسلام كان يشكل تهديداً عسكرياً مباشراً لأوربة على مدى المئات من السنين. وصحيح أيضاً أن الاسلام شكّل أثناء القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة مأزقاً فكرياً للمسيحيين الذين استمروا يرون فيه وفي نبيّه محمد أعلى أشكال الردة والنفاق على مدى مئات السنين. إلا أن الصحيح أيضاً أن الاسلام كان موجوداً على الأقل بوصفه نوعاً من التحدي الديني الحضاري القائم. ولكن ذلك لم يمنع الامبريالية الأوربية أن تقيم مستعمراتها ومؤسساتها على الأراضي الاسلامية. ومهما يكن شأن العداء بين أوربة والاسلام، فقد كان هناك أيضاً خبرة وتجارب مباشرة، نلمسها عند شعراء وكتاب أمثال غوته وجيراردي نرفال وريتشارد بيركون وفلوبير ولويس ماسينيون تميز أبداعهم بالخيال والرهافة.

غير أن الاسلام لم يلق الترحاب في أوربة أبداً، على الرغم من وجود هذه الشخصيات وأمثالها. فمعظم فلاسفة التاريخ الكبار من هيغل الى شبنجلر نظروا الى الاسلام بدون كثير من الحماسة وقد ناقش ألبرت حوراني في مقالة موضوعية قيمة بعنوان: «الاسلام وفلاسفة التاريخ» هذا التحقير المستمر المذهل للاسلام

كنظام من أنظمة الايمان. واذا استثنينا بعض الاهتمام العابر بصوفي غريب الأطوار أو كاتب أو ولي فان الصرعات الأوربية الباحثة عن «حكمة الشرق» نادراً ما شملت الحكماء والشعراء الاسلاميين. فعمر الخيام وهارون الرشيد والسندباد وعلاء الدين وحاجي بابا وشهرزاد وصلاح الدين يكونون على الأرجح القائمة الكاملة لكل الشخصيات الاسلامية التي يعرفها الأوربيون المتعلمون في العصر الحديث. حتى كاريل لم يسعفه الحظ في أن يجعل محمداً مقبولاً على نطاق واسع. أما بالنسبة لمحتوى الدين الذي نشره محمد فقد بدا للأوربيين منذ عهد بعيد شيئاً غير مقبول انطلاقاً من الخلفية المسيحية وان كان مثيراً للاهتمام.

حين تصاعدت المشاعر القومية الاسلامية في آسيا وأفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر ساد الرأي القائل إن المستعمرات المسلمة لا بد أن تظل تحت الوصاية الأوربية لانها كانت تدر مالاً وفيراً رابحاً من جهة ولأنها كانت متخلفة وبحاجة الى الضبط والنظام والمراقبة الغربية أيضاً. مهما يكن الأمر وبالرغم من العنصرية والعدوان المتكررين الموجهين ضد العالم الاسلامي نجد أن الأوربيين قد عبروا تعبيراً حيوياً ناشطاً عما عناه الاسلام لهم. ومن هنا نشأ ما يمثل الاسلام في البحث والفن والأدب والموسيقى والحوار والنقاشات العامة — في الثقافة الأوربية كافة منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا.

ولا نجد في الخبرة الامريكية مع الاسلام إلا القدر اليسير من هذه التجارب الملموسة البيّنة. فقد كانت الاتصالات الامريكية بالاسلام محدودة جداً في القرن التاسع عشر، ويتبادر الى أذهاننا بعض الرحالة مثل مارك توين أو هيرمان ملفيل، أو الارساليات التبشيرية المتناثرة هنا وهناك، أو الحملات العسكرية الى شمالي افريقية والتي كان عمرها محدوداً. أما على الصعيد الثقافي فان الاسلام لم يحظ بموقع واضح في أمريكة قبل الحرب العالمية الثانية. وكان الخبراء الأكاديميون عادة ينجزون أعمالهم حول الاسلام في زوايا هادئة في الخلوات اللاهوتية لا في ظل الأضواء المتوهجة للاستشراق ولا على صفحات الصحف والمجلات الرائجة. ومنذ حوالي قرن من الزمن قامت علاقة تعايش مذهلة وان تكن هادئة بين عائلات

المبشرين الامريكيين الذين أرسلوا الى البلدان الاسلامية وبين ملاكات الشؤون الخارجية وشركات البترول. ويظهر ذلك بشكل دوري على شكل تعليقات عدائية توجه ضد مستعربي وزارة الخارجية وشركات النفط الذين يعتقد بأنهم يكنون وداً خاصاً للاسلام يتسم بعداء مر للسامية.

من ناحية ثانية نجد أن جميع البارزين الكبار في الاسلام في الولايات المتحدة هم غرباء المولد: فهناك اللبناني فيليب حتي في جامعة برنستون والنمساوي غوستاف فون غرونباوم في جامعة شيكاغو وكولومبيا، والانكليزي هـ.أ.ر.جب في جامعة هارفارد. والالماني جوزيف شاخت في جامعة كولومبيا، وليس بين هولاء الرجال جميعاً أحد يتمتع بتلك المكانة الثقافية التي يحتلها جاك بيرك في فرنسة أو ألبرت حوراني في انكلترة.

ولكن بعض هذه الشخصيات اختفى من الساحة الامريكية أمثال حتي وفون غرونباوم وشاخت. كما انه من المستبعد أن يكون لبيرك أو حوراني خلفاء في فرنسة أو انكلترة. ولا يوجد في الوقت الراهن من يجاريهم في اتساع ثقافتهم أو يقاربهم في شمول اطلاعهم ودقته. فالخبراء الأكاديميون المختصون في الاسلام الآن يميلون الى معرفة مدارس التشريع في بغداد في القرن العاشر أو أنماط الحياة المدنية المغربية ابان القرن التاسع عشر. وهم ينصرفون عن معرفة ودراسة الحضارة الاسلامية الشاملة ــ الأدب والتشريع والتاريخ وعلم الاجتماع ــ غير أن هذا لا يمنعهم بوصفهم خبراء من أن يصدروا تعميمات حول «العقل الاسلامي» وأبعاده أو «التشوق الشيعي للموت». وقد اقتصرت هذه التصريحات على الصحف ذات الرواج الكبير والمتداولة أو على وسائل الاعلام الأخرى التي التمست منهم هذه الآراء. إلا أن الشيء الهام وذي الدلالة هو أن المناسبات التي تدور فيها مناقشات عامة حول الاسلام سواء بين الخبراء وغير الخبراء توفرها بشكل شبه دائم الأزمات السياسية، فمن النادر أن يطالع القارىء مقالات قيمة عن الحضارة الاسلامية في مجلة نيويورك ريفو أوف بوكس أو هاربرز. ولم يظهر أن الاسلام أهل للتعليق العام والتساؤل إلا حين تهدد الاستقرار في العربية السعودية وايران.

نرى اذن أن الاسلام قد دخل الى وعي غالبية الأمريكيين ـــ ويضم ذلك المثقفين الأكاديميين والمثقفين بشكل عام الذين يعرفون الشيء الكثير عن أوربة وأمريكة اللاتينية ـــ بسبب الربط بينه وبين القضايا الرائجة في وسائل الاعلام مثل النفط، ايران، افغانستان، أو الارهاب. ومع حلول منتصف عام ١٩٧٩ أصبح ذلك برمته يدعى الثورة الاسلامية أو «هلال الأزمة» أو «قوس عدم الاستقرار» أو «صحوة الاسلام». ومن أوضح الأمثلة على ذلك مجموعة العمل الخاصة بالشرق الأوسط التي ضمت برنت سكوكروفت وجورج باول وريتشارد هلمز وليمان لمنتيرز وولتر لسيفي ويوجين روستو وكيرميت رزفلت وجوزيف سيسكو وغيرهم في مجموعة العمل الخاصة التابعة «لمجلس الأطلسي». وحين نشرت هذه المجموعة تقريرها في خريف ١٩٧٩ جعلت عنوانه «النفط وعدم الاستقرار: الخيارات الغربية في الشرق الأوسط» وعندما خصصت مجلة التايم ملفها الرئيسي لموضوع الاسلام في ١٦ نيسان ـــ ابريل ١٩٧٩ زينت غلافها باحدى لوحات جيروم وتمثل مؤذناً ملتحياً يقف فوق مئذنة ويدعو المؤمنين بوقار الى الصلاة. وهي بلا شك لوحة نموذجية تمثل بهاء ومبالغات الفن الاستشراقي في القرن التاسع عشر أفضل تمثيل. ومن المفارقات أن هذا المنظر الهادىء قد الحق بديباجة لا تمت بصلة له وهي «الاحياء النضالي». ولعله لا توجد طريقة أخرى أفضل من ذلك ترمز الى الفرق بين نظرة أوربا ونظرة أمريكا الى الاسلام. فقد تم تحويل لوحة زيتية عادية، تنتج دورياً في أوربة بوصفها شكلاً من أشكال الثقافة العامة، بكلمتين اثنتين الى هوس أمريكي.

هل أنا أبالغ؟ ألم يكن الموضوع الأساسي في مجلة التايم مجرد قطعة من التبسيط أعدت لتلائم حالة ومزاجاً يفترض انه يميل الى الاثارة وكل ما هو جذاب؟

وهل ينطوي الأمر فعلاً على ما هو أكثر جدية؟

ومنذ متى تحتل وسائل الاعلام منزلة مرموقة في القضايا الجوهرية الأساسية أو

السياسية أو الحضارية؟ ثم أليس من الواقع أن الاسلام قد ألقى بنفسه فجأة ليصبح موضع اهتمام العالم؟

وما الذي حل بالمختصين في الاسلام؟ لماذا تم تجاهل اسهاماتهم كلية او تم تحويرها في « اسلام » تناقشه وتميعه وسائل الاعلام؟

لا بد من ايراد بعض الايضاحات القليلة البسيطة قبل أي أمر آخر. فكما سبق أن ذكرت، لم يتمتع أي خبير أمريكي في شؤون العالم الاسلامي بجمهور كبير من القراء. اضافة الى أنه لم تقم أية محاولة لوضع مؤلف عام حول الاسلام وطرحه مباشرة وعلانية أمام جمهور المثقفين، وهنا نستثني كتاب مارشال هودجسون « مغامرة الاسلام » الذي نشر بعد وفاته عام ١٩٧٥ وتألف من ثلاثة أجزاء.

كان الخبراء على درجة عالية من التخصص يخاطبون في أعمالهم خبراء متخصصين من شاكلتهم فقط. وأحياناً لم تكن أعمالهم ذات مستوى فكري متميز يسمح لها بالوصول الى ذلك الجمهور من القراء الذين اجتذبتهم المؤلفات الغربية حول أوربة الغربية أو اليابان أو الهند.

ولهذه الأمور بأسرها تأثيران متعارضان، فعلى خلاف ما هو قائم في فرنسة وانكلترة، لا يمكن أن نسمي مستشرقاً ذا مكانة خارج نطاق الاستشراق (وتجدر المقارنة مع بيرك أو رودنسون في فرنسة) إلا أنه من الصحيح أيضاً أن دراسة الاسلام لا تشجع تشجيعاً حقيقياً في الجامعات الأمريكية ولا تحظى بتأييد وقبول في الثقافة العامة بفضل شخصيات مرموقة قد يساعد ما تتمتع به من مكانة وشهرة ومزايا خاصة الى جعل تجاربها وخبراتها في الاسلام مهمة في حد ذاتها. فهل هناك من شبيه أمريكي لربيكا وست ،وفريا ستارك، وت. أ. لورنس، وولفرد ثسينغر، وجيرترود بل، وب. ه.. نيو باي، وجوناثان رابان وهو أحدثهم عهداً؟ انك تجد في أحسن الفروض نظراء هؤلاء في جماعات المخابرات المركزية الأسبقين

مثل مايلز كوبلاند أو كيرميت روزفلت. وقلما تجد كتاباً أو مفكرين يتمتعون بأي امتياز ثقافي.

يكمن السبب الآخر في غياب آراء خبيرة في الاسلام في الهامش الضيق الذي يشغله الخبراء بالنسبة لما بدا انه يحدث في عالم الاسلام حين تصدّر «الاعلام» وأصبح «الخبر العريض» في منتصف السبعينات. ولا بد من الاعتراف بالحقائق المرة مثل أن الدويلات الخليجية المنتجة للنفط برزت فجأة بالغة القوة والنفوذ. وهناك حرب أهلية في لبنان أصبحت منذ فترة حرباً وحشية بشكل لم يسبق له مثيل ويبدو انها لن تنتهي. وتورطت الحبشة والصومال في حرب طويلة المدى. وأصبحت المشكلة الكردية مشكلة ملحة ذات أولوية بشكل غير متوقع ثم خمدت بعد سنة ١٩٧٥ وأيضاً بصورة مفاجئة. واطاحت ايران بنظامها الشاهنشاهي تحت لواء ثورة اسلامية مذهلة. ووقعت أفغانستان في قبضة انقلاب ماركسي أحمر عام ١٩٧٨ ثم اجتاحتها القوات السوفياتية أواخر سنة ١٩٧٩. وخاضت الجزائر والمغرب نزاعاً مريراً حول قضية الصحراء الغربية. واعدم رئيس باكستاني وتسلمت الحكم مجموعة ديكتاتورية عسكرية. الى غير ذلك من الأحداث المشابهة والتي كان أحدثها عهداً الحرب العراقية الايرانية. وأظن أن ما ذكرته يفي بالغرض. ومن العدل أن نقول ان كتابات الخبراء المختصين في الاسلام في الغرب لم تكن تلقي الضوء إلا على حفنة قليلة من هذه الأحداث. ذلك أن الخبراء لم يتنبئوا بها أبداً ولا أعدوا قراءهم لتوقعها على الاطلاق. ليس هذا فحسب، وانما هم قدموا قدراً هائلاً من الكتابات التي ظهرت عند مقارنتها بما كان يحدث فعلاً كأنها تدور حول مكان آخر في هذا العالم يبعد عنا بعداً اسطورياً، مكان لا علاقة له بهذا الخضم المضطرب الخطير الذي برز فجأة في وسائل الاعلام أمام عيون القارىء.

تلك هي المسألة المركزية ولا يكاد يبدأ بحثها بحثاً موضوعياً حتى الآن. لذلك ينبغي أن نتقدم بحذر. ان الخبراء الاكاديميين المشتغلين في ميدان الاسلام قبل القرن السابع عشر يعملون أساساً في حقل أثري. أضف الى ذلك أن عملهم

مثله مثل عمل غيرهم من المتخصصين في ميادين أخرى هو عمل متخصص مغلق الى حد بعيد. فلا هم رغبوا ولا حاولوا محاولة جادة مسؤولة أن يشغلوا أنفسهم بالمترتبات الحديثة للتاريخ الاسلامي. وقد كان مثل ذلك العمل الذي شغلوا به مرتبطاً الى حد بعيد بأفكار مسبقة عن اسلام متوارث. أو بأنماط مفترضة ثابتة للحياة الاسلامية أو بمسائل لغوية فقهية عفا عليها الزمان. مهما يكن الأمر لم تكن هناك وسيلة للافادة من منجزاتهم في فهم العالم الاسلامي الحديث الذي كان يتطور في اتجاهات مغايرة جداً لتلك الاتجاهات التي سلكها في ظل العهود الاسلامية الأولى، أي من القرن السابع الى القرن التاسع.

أما الخبراء المشتغلون في حقل الاسلام الحديث ــ وبكلمة أدق في حقول المجتمع والشعوب والمؤسسات في العالم الاسلامي منذ القرن التاسع عشر ــ فقد عملوا في نطاق اطار للبحث محدد متفق عليه تشكّل وفق رؤيا وأفكار لم تقم حتماً في العالم الاسلامي. ولا يمكن أن نبالغ في توكيد قيمة هذه الحقيقة بكل تعقيداتها وتنوعها. ولا ننكر الواقع القائم وهو أن الباحث في اكسفورد أو بوسطن يكتب ويبحث وفقاً لمقاييس وتقاليد ومواصفات وتوقعات صاغها نظراؤه ولم يصنعها المسلمون الذين هم موضوع البحث والدراسة. وربما كانت هذه حقيقة بديهية لكننا نرى ضرورة توكيدها. الدراسات الاسلامية في الحقل الاكاديمي تنتمي عموماً الى برامج المناطق (أوربة الغربية، الاتحاد السوفياتي، جنوب شرقي آسيا ...) ومن هنا نجد أنها تنتسب الى آلية وضع وتصميم السياسة القومية. ولا خيار للباحث الفرد في هذا الموضوع. فلو كان أحد الباحثين في جامعة برنستون يقوم بدراسة المذاهب الدينية الأفغانية الحالية فمن الواضح انه قد يكون لمثل هذه الدراسة نتائج سياسية. وسواء شاء الباحث أم أبى فانه سيجد نفسه مسوقاً داخل شبكة تضم الحكومة والشركات والمؤسسات السياسية. وسيتأثر التحويل تبعاً لذلك كما سيؤثر ذلك أيضاً في نوع الناس من الذين يقابلهم الباحث، وبصورة عامة ستعرض عليه مكافآت معينة وأصناف محددة من النشاط والتعاون المشترك. وسواء رضي الباحث أو لم يرض سيتم تحويله الى خبير بالمنطقة رغم أنفه.

أما بالنسبة للباحثين الذين ترتبط ميادينهم ارتباطاً مباشراً بالقضايا السياسية [نقصد هنا في المقام الأول الباحثين في حقل العلوم السياسية وأيضاً المشتغلين في التاريخ الحديث والاقتصاد وعلم الاجتماع والانثربولوجيا ــ علم الانسان ــ] . فهؤلاء كان عليهم معالجة مسائل بالغة التعقيد والخطورة والحساسية ، فكيف يمكن مثلاً أن يكيف الباحث نفسه بوصفه باحثاً ليتلاءم مع المطالب التي تشترط الحكومات عليه تنفيذها ؟ تمثل ايران افضل نموذج لايضاح ما ذكرنا ، فابان حكم الشاه توفرت للباحثين المختصين في الشؤون الايرانية اعتمادات مالية قدمتها مؤسسة بهلوي اضافة الى ما قدمته المؤسسات الامريكية . وكانت هذه الاعتمادات توزع على الدراسات التي تعتمد الواقع الراهن نقطة انطلاقها [غني عن البيان الاشارة الى أن هذا الواقع يسيطر عليه النظام البهلوي المرتبط عسكرياً واقتصادياً بالولايات المتحدة] وقد أصبحت هذه الدراسات عموماً نموذجاً ينسج على منواله كل من يدرس هذا البلد . وفي مرحلة متأخرة من الأزمة ذكرت دراسة صادرة عن اللجنة النيابية الدائمة برجال الاستخبارات أن تقديرات الولايات المتحدة للنظام تأثرت بالسياسة الراهنة « ليس مباشرة بواسطة منع الأخبار غير المرغوب فيها عمداً ، وانما بشكل غير مباشر فلم يطرح صانعو السياسة السؤال عما اذا كان نظام الشاه المستبد سيدوم الى الأبد . والسياسة كانت تبنى على تلك الفرضية » . وهذا بدوره أنتج قلة من الدراسات الجادة التي تقوّم نظام الشاه وتحدد مصادر المعارضة الشعبية له . ويتفرد باحث واحد ، على حد علمي ، هو حامد الغار من جامعة بيركلي في انه خمن القوة السياسية المعاصرة للمشاعر الدينية حق قدرها . وكان حامد الغار وحده الذي ذهب به التنبؤ الى حد تخيل آية الله الخميني الرجل الذي سيطيح بالشاه . ومن الباحثين الذين تحرروا من الوضع الراهن ريتشارد كوتام وايرفاند ابراهيميان الا أنهم للأسف يشكلون قلة قليلة . إلا أنه من العدل ان نذكر ان باحثين غربيين أوربيين يساريين ليسوا متحمسين لنظام الشاه لم يحالفهم النجاح في تحديد المصادر الدينية للمعارضة الايرانية .

لندع ايران جانباً ، لنجد العديد من الاخفاقات الفكرية المهمة في أماكن

أخرى. وهذه الاخفاقات نجمت عموماً من الاتكال غير الموفق على ما أملاه مزيج من السياسة الحكومية واليافطات المبتذلة. ويزودنا الوضع اللبناني والوضع الفلسطيني بأشياء تغني بحثنا الراهن. فقد اعتبر لبنان على مدى سنوات عديدة نموذجاً لما يمكن أن تكون عليه حضارة تعددية. إلا أن النماذج التي اعتمدت في دراسة لبنان كانت على درجة مخيفة من التجسيم والجمود بحيث لم تتح المجال لأي استشفاف أو مقاربة لعنف وعدم انسانية الحرب الاهلية (١٩٧٥ — ١٩٨٢) ومن الظاهر أن العيون الخبيرة قد تسمّرت نظرياتها بشدة بالغة فيما مضى في صور محددة ل «الاستقرار» اللبناني فكانت موضوعات الدراسة هي الزعامات التقليدية، والنخبة، والأحزاب السياسية، والشخصية الوطنية، والتحديث.

ومن الملاحظ انه، حتى حين وصف النظام اللبناني بانه محفوف بالمخاطر والمجازفات أو حين تم تحليل تمدنه الناقص، قام ذلك على أساس فرضية وحيدة لم تتغير، تدعي أن المشكلات اللبنانية برمتها يمكن ضبطها وهي أبعد عن أن تكون مدمرة تدميراً جذرياً. فقد اعتبر لبنان في الستينات بلداً مستقراً لأن الوضع بين «العرب» كان هادئاً حسبما يخبرنا أحد الخبراء الذي أقام جدله على اعتبار أن لبنان يبقى مستقراً ما بقيت تلك المعادلة محافظاً عليها.

لم يخطر ببال أحد أن يحدث ما حدث. وهو احتمال أن يكون هناك استقرار بين العرب مقابل عدم استقرار في لبنان. ولعل السبب الرئيس لذلك يكمن في أن الحكمة التقليدية أسبغت على لبنان تعددية أبدية واستمرارية متجانسة منسجمة بغض النظر عن الانقسامات الداخلية اللبنانية وعدم ارتباط أوضاع البلدان العربية المجاورة بالوضع اللبناني.

ومن هنا كان من المحتم أن تنشأ كل مشكلة في لبنان من الأوضاع العربية الدقيقة المحيطة به لا من اسرائيل أو الولايات المتحدة على سبيل المثال، مع ان لكل منهما خططاً دقيقة محددة بالنسبة لما يتعلق بلبنان، وان كانت هذه الخطط لم تخضع لتحليل وسائل الاعلام. ثم كان في الساحة أيضاً لبنان الذي جسد

أسطورة التحديث. وحين نقرأ اليوم مؤلفاً تقليدياً يتضمن هذا النوع من حكمة النعامة ندهش لمدى الصفاء الذي عرضت به هذه الخرافة حتى سنة ١٩٧٣ حين كانت الحرب قد ابتدأت في الواقع. ويأتينا التنبؤ بأن لبنان قد يجتاز تغييرات ثورية مع استبعاد مثل هذا «الافتراض». أما الاحتمال الأقرب للحدوث فهو «تحديث مستقبلي تستفيد منه عامة الشعب» [وهذا تعبير ملطف لكنه ساخر عما أصبح أشد الحروب الأهلية ضراوة في تاريخ العرب الحديث] في نطاق النظام السياسي السائد. أو كما ادعى أحد كبار الانثربولوجيين: تبقى قطعة الفسيفساء اللبنانية الدقيقة اللطيفة صحيحة سليمة، ومن المؤكد... أن لبنان كان وما يزال الاكثر فعالية وكفاءة في احتواء انقساماته الأساسية العميقة.

نتيجة لكل ذلك أخفق الخبراء، في لبنان كما في غيره من البلدان، في ادراك أن غالبية الأمور الجوهرية المهمة في الدول التي كانت مستعمرة لا يمكن حصرها في عنوان أو قاعدة واحدة هي «الاستقرار». ففي لبنان كان من شأن تلك القوى المتحركة بشدة، وهي القوى نفسها التي تجاهل الخبراء دراستها وبحثها تجاهلاً تاماً أو على الأقل أساؤوا تقديرها، أن تمزق البلاد شر ممزق.

على المنوال نفسه تقضي الحكمة التقليدية التي ما زالت قائمة منذ سنوات عديدة أن يعتبر الفلسطينيون مجرد لاجئين يمكن اعادة توطينهم، لا أن يعتبروا قوة سياسية لها تأثيرها الذي لا يستهان به في أي تقدير مقبول للوضع في الشرق الأدنى. وقد أصبح الفلسطينيون منذ منتصف السبعينات مشكلة رئيسة من المشكلات التي تعترف بها سياسة الولايات المتحدة ومع ذلك فانهم لم يلقوا حتى الآن الاهتمام الفكري والبحثي الذي يتلاءم وأهميتهم. وعوضاً عن ذلك نجد أن الموقف الثابت للولايات المتحدة هو معالجتهم كملحقات لسياسة الولايات المتحدة نحو مصر واسرائيل واهمالهم تماماً في الحريق اللبناني. وليس هناك أي بحث يعتمد عليه أو رأي خبير له اطلاع دقيق يخالف هذه السياسة أو يعارضها، ومن المرجح أن يكون مردود ذلك مأساوياً على المصالح القومية الاستراتيجية الأمريكية. وخاصة منذ الحرب الايرانية ــ العراقية التي فاجأت مرة جديدة جماعة

المخابرات وبينت خطأ حساباتهم وتقويمهم للقدرات العسكرية لكل من هذين البلدين .

اضف الى التطابق بين الهيئة المستكينة الباحثة التي تعمل برتابة والاهتمامات الحكومية المشتتة ، حقيقة أخرى مؤسفة وهي أن عدداً هائلاً من الخبراء الذين يكتبون عن العالم الاسلامي لا يتقنون اللغات الضرورية . ولذلك ليس أمامهم إلا أن يعتمدوا على الصحف أو على غيرهم من الكتاب الغربيين في استقصاء معلوماتهم. وهذا الاعتماد المعزز من جديد على التصور الرسمي أو التقليدي للأمور بمثابة شرك علقت فيه وسائل الاعلام في مجمل أدائها لعرض الأوضاع في ايران ما قبل الثورة . كان هناك اتجاه الى الدراسة واعادة البحث والى التركيز على أمور محددة : النخبة ، وبرامج التحديث ، والجيش ، والزعماء البارزين ، والاستراتيجية الجغرافية ـــ السياسية ، والانتهاكات الشيوعية . وربما بدت هذه الأمور مدعاة لاهتمام أمريكا كأمة ، ولكن الواقع هو أن الثورة الايرانية قد اكتسحتها جميعاً في غضون أيام معدودات . فانهار عرش الامبراطور برمته ، وتفتت الجيش والذي أنفقت عليه بلايين الدولارات . أما النخبة إما انها اختفت أو التحقت بالوضع الناشيء الجديد . وفي كلتا الحالتين تبين أنهم لا يقررون السلوك السياسي الايراني كما كان يؤكد في السابق .

ورغم أن جيمس بيل من جامعة تكساس قد نجح في استشقاف ما ستقود اليه أزمة عام ١٩٧٨ وهو بلا شك يستحق الاطراء على ذلك . إلا أننا نجده يوصي صانعي السياسة في الولايات المتحدة حتى وقت متأخر في كانون الأول ـــ ١٩٧٨ أن « يشجعوا الشاه .. على انتهاج سياسة الانفتاح .. ! » . وبتعبير آخر حتى صوت هذا الخبير ظل ملتزماً برعاية النظام الذي كان يواجه معارضة الملايين من شعبه الذين قاموا باحدى كبريات الانتفاضات العارمة في التاريخ الحديث .

إلا أن بيل أبرز عدداً من الأمور الهامة حول جهل الولايات المتحدة العام بايران . فقد أصاب بقوله ان التغطية الاعلامية سطحية ، وان الاعلام الرسمي موجه وفق رغبة الشاه وآل بهلوي ، وان الولايات المتحدة لم تبذل أي جهد لمعرفة

ايران معرفة عميقة أو للاتصال بالمعارضين ، وبيل يتوقف هنا ولا يتابع كلامه ولم يقل مثلاً ان هذه الاخفاقات كانت وما تزال من أعراض الموقف العام الذي تتخذه الولايات المتحدة وأوربة تجاه العالم الاسلامي وتجاه معظم دول العالم الثالث . ومن بعض هذا الموقف عدم قيام بيل بالربط بين أقواله المحقة حول ايران وبين بقية العالم الاسلامي . فأولاً لم تقم أية مواجهة جدية ذات بال تمحص المسألة المنهجية المركزية ، ونقصد بها : ما قيمة الحديث عن الاسلام وعن الصحوة الاسلامية ؟ وثانياً ما هي العلاقة بين السياسة الحكومية والبحث العلمي ، أو كيف ينبغي أن تكون هذه العلاقة ؟ هل يفترض أن يكون الخبير فوق السياسة أو أنه ينبغي أن يكون ملحقاً سياسياً للحكومات ؟.

قال وليام بيمان من جامعة براون : ان أحد الأسباب الرئيسة للأزمة الأميريكية ــ الايرانية سنة ١٩٧٩ يكمن في اخفاق الولايات المتحدة في استشارة الخبراء الأكاديميين الذين انفقت مبالغ هائلة على تعليمهم في سبيل هدف واضح ومحدد ألا وهو دراسة العالم الاسلامي .

إلا أن بيل وبيمان كلاهما فاتهما أن يدركا احتمال أن يكون سعي الباحثين للعب دور المستشارين في حين يطلقون على أنفسهم لقب باحثين ، هو السبب الذي يجعلهم يبدون شخصيات غامضة وغير موثوقة بسبب ذلك أمام الحكومة ومجتمع المفكرين على حد سواء .

اضافة الى ذلك ، هل هناك وسيلة مايعتمدها المفكر المستقل للمحافظة على استقلاله حين يعمل في خدمة الدولة مباشرة ؟ وما هي العلاقة بين الولاء السياسي الصريح والرؤيا الثاقبة ؟ ألا يتسنى دمجهما ؟ هل يستبعد أحدهما الآخر ؟ وما هو السبب في أن كادر الباحثين الاسلاميين ــ مع الاشارة الى صغر حجمه ــ لم يحظ في الولايات المتحدة بجمهور ذي أهمية ؟ ولماذا يحدث ذلك في الوقت الذي بدت الولايات المتحدة في أمس الحاجة للتعلم والمعرفة ؟ من المؤكد أن هذه الأسئلة جميعاً لا يمكن الاجابة عليها إلا في نطاق الاطار الواقعي ، السياسي الى حد

بعيد ، الذي يتحكم تاريخياً في العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامي . والآن لنلق نظرة الى هذا الاطار ونكشف الدور الذي يمكن للخبير أن يلعبه في هذا المجال .

لم يسعفني الحظ أبداً أن اكتشف أية حقبة في التاريخ الأوربي أو الأمريكي منذ العصور الوسطى ، تم أثنائها بحث الاسلام أو التفكير فيه بصورة عامة خارج إطار ابتدعته العواطف والأهواء والانحياز والمصالح السياسية ـــ وهذا الاكتشاف قد لا يبدو مذهلاً ، إلا أنه يتضمن كل ما يتصل بجميع الفروع العلمية التي عرفت منذ مطلع القرن التاسع عشر اما مجتمعة باسم فرع الاستشراق أو التي حاولت أن تدرس الشرق دراسة منهجية . ولن يعترض أحد على قولنا إن أوائل المعلقين على الاسلام مثل بطرس المحترم وبارثلمي دير بيلو كانا ، في ما قالاه ، من المسيحيين المتحمسين . ولكن لم يتم تمحيص الفرضية القائلة إن أوربا الغربية عندما دخلت في العصر العلمي الحديث وتحررت من الجهل والخرافات فلا بد أن ذلك قد انعكس على الاستشراق . أليس من الصحيح أن سلفستر دي ساسي وادوارد لين وارنست رينان وهاملتون جب ولوي ماسينيون كانوا جميعهم باحثين موضوعيين ؟

أوليس صحيحاً أيضاً ، استناداً الى مختلف أشكال التقدم الذي بلغناه في القرن العشرين ، في علم الاجتماع والانثربولوجيا والألسنية والتاريخ ، أن الباحثين الأمريكيين الذين يدرّسون موضوع الشرق الأوسط والاسلام في جامعات مثل برنستون وهارفرد وشيكاغو يتحلون بالموضوعية والتنزه عن الهوى وعدم الانحياز ؟ والجواب هو كلا . ولكن لا لأن الاستشراق أشد انحيازاً من غيره من العلوم الانسانية والاجتماعية بل انه مؤذ ملوث بأدران العالم ، كما هي الحال في غيره من العلوم . إلا أن الفارق الرئيسي يكمن في أن الباحثين المستشرقين مالوا إلى استخدام ما توفره لهم مكانتهم بوصفهم خبراء ، من نفوذ لانكار مشاعرهم العميقة المتأصلة نحو الاسلام باعتماد لغة نافذة تستهدف أن تشهد لهم بالموضوعية و «عدم الانحياز» العلمي .

تلك قضية. أما القضية الثانية فتميز نمطاً تاريخياً في ما كان يعتبر تخصصاً غير مميز المعالم للاستشراق فكلما نشب توتر في الأزمنة الحديثة بين الغرب وشرقه (أو بين الغرب واسلامه) كان الميل في الغرب ليس الى اعتماد العنف المباشر، بل الى اعتماد وسائل التمثيل العلمية شبه الموضوعية وهي وسائل باردة حيادية وبهذا الأسلوب يجعل الاسلام أكثر وضوحاً. وتتجلى «الطبيعة الحقيقية» لتهديده ويُقترح ضمناً انتهاج خطة عمل ضده وفي مثل هذا السياق يعتبر المسلمون العلوم والعنف المباشر أشكالاً من العدوانية ضد الاسلام.

هنا سأستشهد بمثلين يوضحان طروحاتي. فنحن نستطيع أن نتبين الآن بمنظور زمني تراجعي أن فرنسا وانكلترة خلال القرن التاسع عشر قد أسبقتا احتلالهما لأجزاء من الشرق الاسلامي بفترة اشتملت على تطوير وتحديث تقنيين فنيين باهرين في مختلف الوسائل والطرق البحثية الخاصة بتحديد السمات المميزة للشرق وفهمه. فقد تلا الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ فترة كادت تقارب العقدين قام خلالها الباحثون الفرنسيون بتحويل دراسة الشرق من علم أثري قديم الى علم عقلاني. وكانت هناك طبعاً حملة نابليون بونابرت واحتلاله لمصر سنة ١٧٩٨، وينبغي أن نشير الى أنه قد أعدّ لحملته بضم جماعة رفيعة المستوى من العلماء حتى يضمن لمشروعه المزيد من الفعالية. ولكن رأيي هو أن احتلال نابليون لمصر القصير الأجل كان نهاية فصل من كتاب. وبدأ فصل جديد مع تولي سيلفستر دي ساسي شؤون المؤسسات الفرنسية للدراسات الشرقية، وتلك حقبة طويلة أصبحت فرنسا خلالها زعيمة الاستشراق في العالم. وبلغت ذروة هذا الفصل بعد ذلك حين احتلت الجيوش الفرنسية الجزائر ١٨٣٠.

لا أرغب على الاطلاق أن أوحي بوجود علاقة سببية بين هذين الحدثين. ولا أن أتبنى النظرة المهاجمة الناقدة للفكر القائلة ان كل الدراسات العلمية تقود بالضرورة الى العنف والعذاب. كل ما أود أن أقوله هو أن الامبراطوريات لا تولد بين عشية وضحاها وهي لا تنظم وتحكم في الأزمنة الحديثة ارتجالياً. وان كان التطور العلمي يتضمن اعادة تعريف وتحديد وتشكيل العديد من ميادين الخبرة

الانسانية على أيدي علماء يحتلون موقعاً عالياً يعلو على المادة التي يدرسونها ، فليس من قبيل تجاهل الموضوع أن نرى التطور نفسه حاصلاً بين سياسيين أعيد تعريف وتحديد مجال سلطتهم بحيث يشتمل على مناطق أدنى من العالم حيث يمكن اكتشاف مصالح وطنية تعتبر فيما بعد بحاجة الى إشراف .

انني أشك في قدرة انكلترة على احتلال مصر بمثل تلك الطريقة المؤسسة جيداً ولتلك المدة الطويلة التي احتلتها لولا ذلك الاستثمار المكين في الدراسات الشرقية الذي كان أوائل رواده علماء بحاثة على غرار ادوارد وليام جونز .

ان الإلفة ويسر المنال والتمثيل والتعريف هو ما أوضحه المستشرقون عن الشرق . فقد أصبح بالامكان رؤية الشرق ودراسته وادارته . فلا حاجة به أن يبقى مكاناً قصياً وعجيباً وغامضاً ، على ثرائه الطائل . بل ان في الامكان استحضاره واستجلاء كنهه والارتياح اليه عندنا ــ أو ببساطة أشد ، بامكان الأوربيين أن يشعروا بالارتياح فيه كأنه وطنهم ، وهو ما قامت أوربة به بالفعل .

أما المثال الثاني فهو مثال معاصر . فانه من الواضح أن الشرق الاسلامي في غاية الأهمية اليوم بسبب مصادره وبسبب موقعه الجغرو ــ سياسي. غير أن أياً من هذين السببين لا يتناقض مع مصالح المواطنين الشرقيين أو مع حاجاتهم أو طموحاتهم أو أهدافهم . والولايات المتحدة ما انفكت منذ الحرب العالمية الثانية تحتل مواقع السيطرة والسيادة في العالم الاسلامي التي سبق لبريطانية وفرنسا أن احتلتها . وقد تم هذا التغيير باستبدال نظام امبريالي بآخر على شاكلته ورافقه حدثان مهمان : أولهما الازدهار المتواضع للاهتمام العلمي والبحثي الاكاديمي المختص بالاسلام الذي يركز على الأزمات ، وثانيهما الثورة الباهرة في الوسائل التقنية المتوفرة للمطابع التي يملك معظمها القطاع الخاص وصناعات الصحافة الالكترونية . فلم يسبق أبداً أن غطى الاعلام أخبار أي موقع دولي مضطرب بمثل ما حظيت به ايران من متابعة فورية ومنتظمة . لذلك ظهرت ايران كأنها موجودة في حياة الأمريكيين ، لكنها عميقة الغربة عنهم ، مع كثافة شعورية حادة لم

يسبق لها مثيل. وكان من أثر هاتين الظاهرتين معاً اللتين يعتمدهما جهازٌ يعتد بعدده من الخبراء الجامعيين ورجالات السياسة والحكومة ورجال الأعمال لدراسة الاسلام والشرق الأوسط، واللتين أصبح الاسلام عبرهما موضوعاً مألوفاً لكل متلقي الأخبار في الغرب، أن أوشكتا على تدجين العالم الاسلامي تدجيناً كاملاً، أو على أقل الاحوال تدجين ما اعتبر جديراً بالاخبار والاعلام من مظاهره. ولم يصبح هذا العالم موضوعاً لأشد اشباع غربي ثقافي واقتصادي في التاريخ فحسب بل ان التبادل بين الاسلام والغرب ـ أي الولايات المتحدة على وجه الخصوص ـ هو أحادي الجانب إلى أبعد حد. كما أنه فيما يختص بأجزاء أخرى من العالم الاسلامي أقل جدارة بالاعلام عنها، بالغ التشويه والتحريف والتضليل. ولا توجد أي منطقة أخرى غير غربية تسيطر الولايات المتحدة عليها بمثل سيطرتها على العالم العربي ـ الاسلامي.

لا نبالغ بالقول إن العرب والمسلمين تتم تغطيتهم الاعلامية أساساً بوصفهم موردي بترول أو ارهابيين محتملين. أما تفاصيل الحياة العربية ـ الاسلامية والكثافة الشعورية الانسانية وزخمها النابض فلم يدخل إلا النزر اليسير منها حتى في وعي أولئك الذين احترفوا تغطية العالم الاسلامي والابلاغ عنه.

عوضاً عن ذلك لدينا سلسلة محدودة من الكتابات الهزلية الكاريكاتورية الفجة المختزلة حول العالم الاسلامي، معروضة بطريقة من شأنها أن تجعل هذا العالم معرضاً للعدوان العسكري، اضافة الى أشياء أخرى تسمح بها هذه الطريقة. وليس من قبيل المصادفة حسبما أرى أن يكون الكلام الحديث عن تدخل الولايات المتحدة عسكرياً في الخليج، أو ما يدعى بمبدأ كارتر، أو النقاشات الجارية بشأن قوات الانتشار والتدخل السريع قد سبقتها فترة من العرض العقلاني لـ «الاسلام» عن طريق التلفزيون الهادىء وبواسطة الدراسة الاستشراقية «الموضوعية». ان وضعنا الواقعي اليوم يشابه مشابهة مخيفة تلك النماذج التي سبق أن أشرنا اليها ونعني بها نماذج بريطانية وفرنسية في حقبة القرن التاسع عشر.

هناك أسباب سياسية وثقافية أخرى لهذا الوضع ، فبعد الحرب العالمية الثانية · حين أخذت الولايات المتحدة محل بريطانية وفرنسة في لعب الدور الاستعماري ، تم تصميم مجموعة من السياسات للتعامل مع العالم تلائم خصوصاً مشكلات كل منطقة تؤثر في مصالح الولايات المتحدة وتتأثر بها . وكان القرار لأوربة هو أن تستعيد عافيتها بعد الحرب فكان مشروع مارشال هو السياسة الملائمة لذلك بالاضافة الى غيرها من السياسات الامريكية الشبيهة . أما الاتحاد السوفياتي فقد انبثق بطبيعة الحال كمنافس لدود للولايات المتحدة .

ولا يخفى على أحد أن الحرب الباردة قد أنتجت سياسات ودراسات ، بل حتى عقلية معينة لا تزال تهيمن على العلاقات بين كل قوة عظمى وأخرى . ويبقى بعد ذلك ما صار يدعى بالعالم الثالث ، الذي هو حلبة تنافس ليس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي فحسب ، بل انما أيضاً بين الولايات المتحدة والعديد من القوى المحلية الوطنية التي استقلت حديثاً عن المستعمرين الأوربيين [بريطانية وفرنسة أساساً] .

بدا أن العالم الثالث في نظر صانعي القرار الأمريكيين ، بدون أي استثناء ، عالم متخلف ويقع في قبضة أساليب حياتية بالية وتقليدية جامدة ، ويتعرض تعرضاً خطيراً للتخريب الشيوعي والجمود الداخلي . فأصبح التحديث هو جدول الأعمال الملائم للعالم الثالث من وجهة نظر الولايات المتحدة . وكما طرح جيمس بيل «شكلت نظرية التحديث الجواب الايديولوجي على عالم يتصف بالجيشان والاضطراب الثوريين المتزايدين والرجعية المستمرة في صفوف النخب السياسية التقليدية» . فكان أن تدفقت مبالغ طائلة على افريقية وآسية بهدف ايقاف الشيوعية وتقوية تجارة الولايات المتحدة وتطويرها . والأهم من ذلك كله تطوير كادر من الحلفاء الوطنيين المحليين يكون مبرر تواجدهم الدقيق تحويل البلاد المتخلفة الى أمريكا مصغرة ، وبمرور الوقت تطلبت الاستثمارات الأولى حتى تستمر وتتطور مبالغ اضافية ومعونة عسكرية متزايدة . وهذا أنتج التدخلات في كافة أرجاء آسية وأفريقية وأمريكا اللاتينية مما أدى إلى أن تصبح الولايات

المتحدة الأمريكية بانتظام ووضوح في موقع مضاد للوطنية المحلية بكل أشكالها وتجلياتها وأنواعها تقريباً .

ومن غير الممكن أبداً أن نفهم جهود الولايات المتحدة في سبيل التحديث فهماً تاماً إلا اذا رافق ذلك ملاحظة كيف أن هذه السياسة نفسها قد أنتجت أسلوب تفكير وطريقة تتبع في النظر الى العالم الثالث من خصائصها أن زادت الاستثمار السياسي والعاطفي والاستراتيجي في فكرة التحديث ذاتها . وما فيتنام الا دليل على ذلك . فما أن اتخذ القرار بضرورة انقاذ هذا البلد من الشيوعية حتى نشأ علم كامل لتحديث فيتنام وقد انخرط في ذلك المختصون الحكوميون جنباً الى جنب مع الخبراء الجامعيين . وبمرور الوقت سيطر ابقاء أنظمة سايغون الموالية لأمريكا والمعادية للشيوعية على قيد الحياة على كل ما عداها، حتى عندما اتضح بجلاء أن الأغلبية من الشعب تعتبر تلك الأنظمة غريبة وقمعية ، وحتى بعد أن دمر خوض الحروب غير الناجحة في سبيل تلك الأنظمة المنطقة بأسرها وانتهت بليندون جونسون الى فقدان كرسي الرئاسة .

ومع ذلك نجد أن قدراً كبيراً من الكتابات حول فضائل تحديث المجتمع التقليدي قد اكتسب سلطة لا يكاد يرقى اليها الشك على الصعيد الاجتماعي والثقافي في الولايات المتحدة ، في الوقت الذي أصبح فيه التحديث في أجزاء عديدة من العالم الثالث مرتبطاً في أذهان الرأي العام الشعبي بالانفاق الغبي والأسلحة والمعدات والأدوات غير الضرورية والحكام الفاسدين وتدخل الولايات المتحدة الوحشي في شؤون البلدان الصغيرة والضعيفة .

من بين الأوهام الكثيرة الصامدة في نظرية التحديث ظهر وهم وطيد الصلة بالعالم الاسلامي ونقصد به الوهم القائل إن الاسلام ، قبل مقدم الولايات المتحدة ، كان يعيش في طفولة كتب عليه أن يحياها للأبد مدرعاً في مواجهة التطور الصحيح بمجموعة بالية من الخرافات ويمنع شيوخه وكتاتيبه الجاهلة خروجه من العصور الوسطى الى العالم الحديث . وفي هذه النقطة يلتقي الاستشراق

والتحديث أوثق لقاء . فلو لم يكن المسلمون اكثر من أطفال قدريين يخضعون لظلم عقلياتهم وعلمائهم وزعمائهم السياسيين المتطرفين أفلا يستطيع أي مختص في السياسة والانثربولوجيا والاجتماع أن يبين أنه يمكن اذا توفرت فرصة ملائمة ادخال شيء يماثل الطريقة الأمريكية في الحياة الى الاسلام بواسطة البضائع الاستهلاكية والدعاية المناهضة للشيوعية والزعماء الصالحين؟ غير أن الصعوبة الكبرى بالنسبة للاسلام تكمن في انه ، على النقيض من الصين والهند ، لم تتم أبداً تهدئته أو هزيمته حقاً . وما زال الاسلام أو شكل ما من أشكاله لأسباب كانت على الدوام تبدو كأنها تتحدى أذهان وفهم الباحثين يواصل اجتياحه لاتباعه الذين يعاندون القبول بالواقع ، أو على الأقل ذلك الواقع الذي يتضح فيه تفوق الغرب .

استمر بذل جهد كبير في سبيل التحديث على طول العقدين اللذين تبعا الحرب العالمية الثانية . وكانت النتيجة أن أصبحت ايران هي القصة الناجحة للتحديث كما أصبح حاكمها الزعيم المحدّث بلا منازع. أما فيما يختص ببقية العالم الاسلامي سواء شمل ذلك القوميين العرب أو جمال عبد الناصر أو سوكارنو أو الوطنيين الفلسطينيين أو جماعات المعارضة الايرانية أو الآلاف من المعلمين المسلمين غير المعروفين والاخوانيات والتنظيمات الاسلامية المجهولة فنجد أن الباحثين الغربيين قد عارضوها برمتها أو لم يغطوها أبداً . أولئك الباحثون ذوو الاستثمار الهائل في نظرية التحديث والمصالح الأمريكية الاستراتيجية والاقتصادية في العالم الاسلامي .

طرح الاسلام ، خلال عقد السبعينات المتفجر ، برهاناً آخر على عناده وتصلبه . فهناك على سبيل المثال الثورة في ايران. فالذين أطاحوا بالشاه لم يكونوا موالين للشيوعية ولا موالين للتحديث على حد سواء . فلم يكن متاحاً شرحهم وفهمهم ببساطة استناداً الى السنن السلوكية التي افترضتها مسبقاً نظرية التحديث . وقد بدا أنهم غير شاكرين مظاهر الرفاهية والأمن التي يوفرها التحديث [السيارات ، وجهاز عسكري وأمني ضخم ونظام مستقر] كما اتسموا بعدم المبالاة بالأفكار

الغربية جملة وتفصيلاً. وكان أشد الأمور مدعاة للقلق في الموقف الذي اتخذوه وخاصة الخميني هو عنادهم المتصلب ضد قبول أي طراز من السياسة [أو حتى من العقلانية] لا ينتمي اليهم انتماء راسخاً. وكان تمسكهم بالاسلام هو أهم التحديات وأشدها اثارة. ومن المفارقات الطريفة أن نجد أن نفراً قليلاً من المعلقين الذين تناولوا السلفية الأصولية الاسلامية والأنماط المنطقية المنتمية للقرون الوسطى في الغرب، قد لاحظوا أنه على بعد أميال قليلة الى الغرب من ايران، في اسرائيل مناحيم بيغن يقوم نظام كامل الاستعداد للتشريع لكل أعماله استناداً الى السلطة الدينية والى عقيدة لاهوتية تبدو مغرقة في التخلف.

ونفر أقل منهم قاموا بالربط بين شجبهم العنيف للانبعاث القائم للدين الاسلامي وبين انبعاث أديان التلفزيون التي يبلغ عدد أتباعها في الولايات المتحدة عدة ملايين. أو بين شجبهم ذاك وحقيقة أن مرشحين من ثلاثة أساسيين للرئاسة الأمريكية سنة ١٩٨٠ كانا من المسيحيين المتجددين المندفعين.

اننا نجد أن حدة الشعور الديني قد ألصقت بالاسلام وحده حتى مع ما تحرزه العواطف الدينية من انتشار مرموق في كل مكان. وما علينا سوى أن نتذكر الاسراف العاطفي الذي انطوى عليه تناول الصحافة الحرة لشخصيات متدينة غير ليبرالية مثل البابا يوحنا بولس الثاني لنتبين مدى العدوانية العوراء التي تضمنها الموقف ضد الاسلام. وأصبح الارتداد مرة أخرى الى الدين هو النهج الذي يمكن احتذاؤه لشرح معظم الدول الاسلامية ـ من المملكة العربية السعودية التي رفضت كامب ديفيد انطلاقاً من منطق اسلامي خالص الى الباكستان وأفغانستان والجزائر ـ. ويمكننا بجلاء أن نتبين بهذه الطريقة كيف جرى تمييز العالم الاسلامي في العقل الغربي وبخاصة في عقل الولايات المتحدة عن مناطق أخرى في العالم يمكن تطبيق تحليل الحرب الباردة فيها. فظهر مثلاً ألا سبيل الى الحديث عن العربية السعودية والكويت بوصفهما جزءاً من العالم الحر. بل حتى ايران في ابان حكم الشاه لم تنتم أبداً الى جانب «نا» انتماء تاماً كانتماء فرنسة وبريطانية وذلك على الرغم من التزامها بالعداء الشديد للسوفيات.

وعلى الرغم من كل ذلك نرى صانعي السياسة الأمريكيين يواصلون الحديث غن فقدان ايران تماماً كما دأبوا يتحدثون خلال العقود الثلاثة الأخيرة عن فقدان الصين وفيتنام وأنغولا. اضافة لذلك كان النصيب التعس للدول الخليجية المتمسحة بالاسلام يكمن في اعتبار مديري الأزمات الامريكيين لها أماكن جاهزة للاحتلال العسكري الأمريكي المباشر. بناء على ذلك يحذر جورج بول في نيويورك تايمز بتاريخ ٢٨ حزيران / يونيو ١٩٧٠ من أن مأساة فيتنام قد تؤدي الى اللاعنف والعزلة، في حين أن المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط كبيرة الى حد يجعل من اللازم على الرئيس أن يثقف الشعب الأمريكي حول احتمال التدخل العسكري هناك.

أمر آخر يجدر بنا أن نورده في هذا السياق وهو دور اسرائيل في توسط الآراء الغربية، وبوجه خاص الأمريكية، حول العالم الاسلامي منذ الحرب العالمية الثانية. فنجد أولاً أن الشخصية الدينية التي تتمسك بها اسرائيل لا تذكرها الصحافة الغربية الا لماماً. فلم ترد أية اشارات صريحة إلى تعصب اسرائيل الديني الا منذ فترة متأخرة. غير أن هذه الاشارات جميعها كانت تتعلق بجماعة غوش أمونيم المتمادية في تطرفها والتي ينحصر نشاطها الرئيس في اقامة مستعمرات غير قانونية وبدون أي غطاء شرعي في الضفة الغربية المحتلة وبشراسة عنيفة. إلا أن معظم التقارير الصحفية المنشورة في الغرب تخفي وتتجاهل حقيقة مزعجة لا ترتاح لها وهي أن حكومة حزب العمل العلماني هي أول من أنشأ مستعمرات لا شرعية في المناطق العربية المحتلة، وليس المتطرفون المتدينون الذين يقومون الآن بالاضطرابات والشغب. إن هذا الصنف من التقارير العوراء الاحادية الجانب يشكل في رأيي دلالة على كيف استخدمت اسرائيل ــ حليفنا العتيد والديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط! ــ في مغايرة الاسلام.

بهذا الشكل ظهرت اسرائيل كأنها معقل الحضارة الغربية المشيد في الصحراء الاسلامية مع كثير من الفخر والاطراء الذاتي. أما ثانياً فقد أصبح أمن اسرائيل، في عيون الأمريكيين، قابلاً للتبادل بصورة مرضية مع اتقاء خطر الاسلام وضمان

استمرار الهيمنة الغربية وعرض فضائل التحديث. وبهذه الطرق تتكاتف اقتصادياً ثلاث مجموعات من الأوهام تنتج كل منها الأخرى في سبيل تدعيم الصورة الذاتية الغربية وتعزيز القوة الغربية في الشرق: النظرة الى الاسلام، ايديولوجية التحديث، وتوكيد القيمة العامة لاسرائيل بالنسبة إلى الغرب.

أضف إلى ذلك وفي سبيل توضيح مواقف الغربيين من الاسلام بجلاء، يعتمد جهاز كامل للدعاية وضع السياسة في الولايات المتحدة على هذه الأوهام وينشرها على أوسع نطاق. وتقوم قطاعات عريضة من النخبة متحالفة مع جماعة الاستراتيجيين الجغراسيين بالافصاح عن آراء متعاظمة حول الاسلام والنفط ومستقبل الحضارة الغربية والنضال من أجل الديمقراطية ضد الاضطراب والارهاب.

ويدلي المختصون في الاسلام بدلوهم في هذا الغمر المتعاظم باستمرار، لأسباب سبق أن أشرنا اليها، بالرغم من الحقيقة التي لا تنكر وهي أن جزءاً نسبياً فقط مما يجري في الدراسات الأكاديمية الاسلامية قد أصابته مباشرة الرؤى الثقافية والسياسية التي نجدها في ايديولوجيا السياسة الجغرافية والحرب الباردة.

وتحتل وسائل الاعلام مرتبة أدنى من ذلك بقليل، فنجدها تأخذ من الوحدتين الأخريين في الجهاز المذكور ما يمكن ضغطه بسهولة اكبر في نطاق الصور: ومن هنا ينتج التصوير الساخر الهزلي والغوغاء المرعبة والتركيز على قانون العقوبات الاسلامي وما الى ذلك. وتنتصب على رأس كل ذلك مؤسسات القوة الهائلة ــ شركات النفط ــ والشركات الاخطبوطية العملاقة والمتعددة الجنسيات وجماعة الحرب والمخابرات والسلطة التنفيذية للحكومة.

حين زار الرئيس الأسبق جيمي كارتر الشرق الأوسط عام ١٩٧٨ ليقضي مع الشاه أول عطلة رأس السنة بعد تسلمه منصبه قال: «ان ايران هي جزيرة استقرار».. لقد كان يتكلم بالقوة الكامنة لهذا الجهاز الهائل المخيف. وفي نفس الوقت ممثلاً مصالح الولايات المتحدة الأمريكية ومغطياً الاسلام.

الاسلام في وسائل الاعلام

ادوارد سعيد

مرة أخرى أعود الى دراسة العلاقة بين الشرق والغرب. وكنت قد أصدرت سابقاً كتابين حاولت فيهما أن أعالج العلاقة بين عالم الاسلام والعرب والشرق من جهة، والغرب وفرنسة وبريطانية وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة من جهة أخرى. وكتاب «الاستشراق» هو أكثر هذه الكتب عمومية حيث رصدت فيه المراحل المختلفة لهذه المراحل منذ حملة نابليون على مصر مروراً بالفترة الاستعمارية الرئيسية وبروز علم الاستشراق الحديث في أوربة اثناء القرن التاسع عشر حتى نهاية السيطرة الاستعمارية الفرنسية والبريطانية على الشرق بعيد الحرب العالمية الثانية وبزوغ السيطرة الأمريكية في نفس الزمان والمكان. فالموضوع الذي يقوم عليه كتاب الاستشراق هو ترادف المعرفة والقوة.

أما الكتاب الثاني «المسألة الفلسطينية» فيعرض تاريخ حالة الصراع بين المواطنين الأصليين العرب ــ وهم على الأغلب مسلمون ــ والحركة الصهيونية [اسرائيل لاحقا] وهي حركة ذات أصول غربية على وجه الاجمال، كما أن أسلوبها في التعامل مع الأحداث «الشرقية» الفلسطينية هو أسلوب غربي في الغالب. وحاولت أن أعرض في هذه الدراسة بصراحة اكبر مما تضمنه كتاب

الاستشراق ما كان خبيئاً مستوراً في طيات النظرات الغربية الى الشرق، وهو في هذه الحالة النضال الوطني الفلسطيني في سبيل حق تقرير المصير.

أما هنا، فالموضوع الذي اخترت هو موضوع مباشر معاصر ألا وهو الاستجابات الغربية، خاصة الأمريكية لعالم اسلامي يعتبر منذ مطلع السبعينات مهماً، إلا انه مع ذلك مضطرب مليء بالمشكلات التي لا تغير التعاطف بل هي مدعاة للمقت والعداء. وبين أسباب هذه النظرة يكمن النقص في توريدات الطاقة الذي مرت به أمريكا والذي تركز على النفط العربي ونفط الخليج ومنظمة الدول المصدرة للنفط الأوبيك، والآثار المزعجة الناتجة عن التضخم والارتفاع الجنوني في أسعار البترول على المجتمعات الأوربية الغربية والأمريكية.

أضف إلى ذلك الدليل المرعب الذي وفرته الثورة الايرانية وأزمة الرهائن لما أصبح يعرف بعودة الاسلام. وأخيراً نذكر انبعاث القومية الراديكالية في العالم الاسلامي وما رافقها ـ للأسف ـ من عودة مكثفة الى المنافسة بين القوى العظمى هناك. ونورد مثالاً على الأمر الأول: الحرب العراقية ـ الايرانية. أما التدخل السوفياتي في أفغانستان والتجهيزات الأمريكية لقوات الانتشار السريع في منطقة الجزيرة والخليج فمثلان على الأمر الثاني.

ورغم أن التورية في تغطية الاسلام ستبدو جليّة بيّنة لكل من يقرأ هذا الكتاب، فمن الجدير بنا أن نورد توضيحاً بسيطاً منذ البداية. ان إحدى النقاط التي أعرضها هنا وفي «الاستشراق» هي أن المصطلح «الاسلام» كما يستخدم اليوم يبدو وكأنما يدل على شأن واحد بسيط لكنه في الحقيقة وهم في بعض أجزائه ودفعة ايديولوجية في بعضه وهو تحديد وتعريف بسيط جداً لدين يعرف بالاسلام في بعضه الآخر. ولا تقوم أي مقابلة مباشرة على أي درجة من الأهمية الصحيحة بين الاسلام في المصطلح الغربي الرائج وبين الحياة الزاخرة بالتنوعات الهائلة التي يحفل بها عالم الاسلام بسكانه الذين يزيد عددهم على الثمانمائة مليون نسمة، وبحدوده الشاسعة التي تمتد وتشمل الملايين من الأميال المربعة في أفريقية وآسية

بصورة أساسية، وبالعشرات من مجتمعاته ودوله وتواريخه وجغرافياته وثقافاته المميزة.

ولكن الاسلام من جهة ثانية يشكل اليوم أنباء صادمة في الغرب، لأسباب سنناقشها لاحقاً، ففي غضون السنوات القليلة الماضية خاصة منذ أن استولت الأحداث في ايران على الاهتمام الأوربي والأمريكي استيلاء منقطع النظير، اتجهت وسائل الاعلام لتغطية الاسلام. لقد قامت بعرضه وبسطه وتصويره وتحديد خصائصه ومميزاته، وتحليله وتوفير مسافات فورية له، ونتيجة لكل ذلك جعلت الاسلام «معروفاً».

إلا أن هذه التغطية، كما أشرت، زاخرة بالمغالطات ويجري مجراها أعمال الخبراء الاكاديميين المختصين في الاسلام والاستراتيجيين الجغراسيين الذين يتحدثون عن «هلال الأزمة». والمفكرين الحضاريين الذين يستنكرون «أفول الغرب». ولقد زودت هذه التغطية مستهلكي الأخبار بالشعور بأنهم باتوا يفهمون الاسلام، دون أن تشعرهم ـــ في الوقت نفسه ـــ بأن الجانب الأعظم من هذه التغطية الناشطة انما يقوم على مادة هي أبعد ما تكون عن الموضوعية. ونجد في الكثير من الحالات أن الاسلام قد أباح عدم الدقة بامتياز، بل انه اباح شتى ضروب التعبير عن العصبية العرقية الجامحة والكراهية الثقافية حتى العرقية ـــ الجنسية والعداء المستحكم العميق، غير انه عداء يفترض أن يكون تغطية عادلة متوازنة مسؤولة للاسلام.

ولو طرحنا جانباً حقيقة أن اليهودية والمسيحية اللتين تحفلان بضروب مهمة من النزعة الأصولية لا تعالجان بمثل هذه الطريقة العاطفية، لتبينا افتراضاً لا يرقى اليه شك بأن الاسلام يمكن أن تعرف مميزاته ـــ بلا حدود ـــ عن طريق اعتماد حفنة من الكليشيهات البالغة التعميم حتى التهور، والرائجة الانتشار. ويفترض أن الاسلام موضوع الحديث هو شيء ثابت حقيقي مستقر على الدوام في موضعه هناك تقع مصادر نفط «نا».

ولقد رافق هذا النوع من التغطية الكثير من التعمية. فحين تشرح نيويورك تايمز المقاومة الايرانية غير المتوقعة للغارات العراقية تجدها تلتجىء الى صيغة جاهزة حول التشوق الشيعي للاستشهاد. مضيفةً من هذا القبيل معلومات، تبدو سطحية إلا أنها معقولة جديرة بالتصديق، لكنني أعتقد أنها انما تستخدم في الحقيقة لتغطية قدر وفير مما لا يفقه الكاتب من أمره شيئا. ولا يعدو الجهل باللغة أن يكون غير جزء يسير من جهل أشمل وأعم. اذ كثيراً ما يُرسل المحرر الصحافي الى بلد غريب دون أي اعداد أو خبرة تؤهله لذلك. بل يكمن المؤهل الوحيد في براعته في التقاط الأشياء بسرعة أو لمجرد وجوده في مكان ملائم قريب من المكان الذي تجري فيه الأحداث التي تحتل الصدارة في الأخبار. وهكذا نجد هذا المحرر بدل أن يحاول أن يعرف المزيد عن ذلك البلد يلتقط أقرب الأمور مثالاً وهي في العادة كليشيه معينة أو حكمة صحافية متداولة لا يمكن أن يتحداها القراء في ذلك الوطن.

ومن هنا لا غرابة أن نجد أنه مع ما يقارب ثلاثمائة صحافي مراسل في طهران خلال الأيام الأولى لأزمة الرهائن ودون أن يكون بين هؤلاء من يتكلم الفارسية كانت جميع التقارير الاعلامية الصادرة من ايران تكرر الروايات الواهية المهترئة نفسها في سردها لما يجري هناك. ومما لا شك فيه أن أحداثاً أخرى وتطورات سياسية قد استجدت في ايران في تلك الأثناء فمرت دون أية ملاحظة أو اشارة اذ لم يمكن حصرها أو تحديدها بسهولة بوصفها مظاهر للعقلية الاسلامية أو العداء للأمريكيين وعموماً للغرب.

وكاد هذان النشاطان فيما بينهما ـــ أي التغطية والتعمية ـــ للاسلام أن يصرفا النظر كلياً عن الاهتمام بالمأزق الذي يشكلان غرضين من أعراضه: ذلك هو القضية العامة المعروفة المعنية بالمعرفة والعيش في عالم أصبح شديد التعقيد والتنوع يستحيل حصره وفهمه في تعميمات فورية ميسورة. ويمثل الاسلام حالة نموذجية كما انه يمثل حالة فريدة لأن تاريخه مع الغرب شديد القدم وشديد التحديد.

وأقصد بقولي هذا أن الاسلام مثله في ذلك مثل الكثير من أجزاء العالم ما بعد الكولونيالي لا ينتمي الى أوربة. كما انه لا ينتمي ــ كما تنتمي اليابان ــ الى مجموعة الأمم الصناعية المتقدمة. لقد تم اعتبار الاسلام على أنه يدخل في نطاق المنظومة التنموية. وذلك مصطلح تعبيري آخر للقول إن المجتمعات الاسلامية قد اعتبرت بحاجة الى التحديث على مدى ثلاثة قرون على الأقل.

وقد أنتجت ايديولوجية التحديث طريقة في النظر الى الاسلام كانت ذروتها ومنتهاها صورة شاه ايران في أوج مجده حاكماً حديثاً عصرياً، وكذلك حين هوى نظامه بوصفه ضحية من ضحايا ما اعتبر تعصباً وتديناً مفرطاً ينتميان الى القرون الوسطى.

ولكن الاسلام من ناحية أخرى كان على الدوام يمثل ازعاجاً للغرب لأسباب ناقشتها في كتابي السابق الذكر عن الاستشراق وأعيد تمحيصها هنا. فلا يمكن القول عن أي دين أو تجمعات ثقافية انها تمثل تهديداً للحضارة الغربية بمثل التوكيد نفسه الذي يعتمد الآن عند الحديث عن الاسلام. وليس من قبيل المصادفة أن الاضطراب والعنف والقلاقل التي تحدث الآن في العالم الاسلامي قد عرّت الحدود الضيقة للكليشيهات الاستشراقية الساذجة المتعلقة بالمسلمين «القدريين» دون أن تولد بديلاً يحل محلها في الوقت نفسه، ما عدا الحنين للأيام الغابرة حين حكمت الجيوش الأوربية العالم الاسلامي برمته تقريباً امتداداً من شبه القارة الهندية حتى شمال افريقية.

وان النجاح القريب العهد للكتب والمجلات والشخصيات التي تدعو الى اعادة احتلال منطقة الخليج وتبرر دعواها هذه بالاشارة الى الهمجية الاسلامية ما هو إلا جزء من هذه الظاهرة، ولا يقل عما تقدم اثارة أن أيامنا هذه قد شهدت تبوؤ خبراء لمركز الشهرة والصدارة في أمريكا مثل ج.ب كيلي النيوزيلاندي وهو أستاذ سابق للتاريخ الامبريالي في جامعة وسكونسن. كما سبق له أن عمل مستشاراً للشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة في أبو ظبي.

لكنه الآن ناقد للمسلمين وللغربيين المغفلين الذين باعوا أنفسهم لعرب النفط ، على العكس من كيلي نفسه. ولم يشر أي من مراجعي كتابه ــ الناقدون أحياناً ــ لا من قريب ولا من بعيد الى السلفية في الفقرة التي اختتم بها كتابه وهي فقرة تستحق أن نثبتها هنا لما تنطوي عليه من رغبة خالصة في الفتح الأمبريالي ومن مواقف عرقية متحيزة لا يكاد يسترها شيء.

يقول كيلي :

« من المستحيل أن نتنبأ بالكم الزماني المتاح أمام أوربة الغربية للحفاظ على إرثها الاستراتيجي شرقي السويس أو لاستعادته. فطالما استمر السلام البريطاني ، أي من العقد الرابع أو الخامس من القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن الحالي ، ساد الهدوء في البحار الشرقية وحول سواحل المحيط الهندي الغربية. وما زال يتردد هناك بعض الهدوء الهش ــ وما هو إلا ظلام أطلال النظام الامبريالي القديم. وان كان لتاريخ السنين الأربعمائة أو الخمسمائة الماضية أي دلالة ، فهي أن هذا السلام الهش لن يصمد طويلاً. ذلك أن معظم آسية يعود القهقرى مسرعاً الى عهود الطغيان والاستبداد ، ويتردى معظم أفريقية في الهمجية ــ أي باختصار عودة الى تلك الحالة التي كانوا عليها حين قام فاسكو دي غاما بدورته حول رأس الرجاء الصالح ليرسي قواعد السيطرة البرتغالية في الشرق. ولا تزال عمان مفتاح السيطرة على الخليج ومداخله البحرية ، تماماً كما أن عدن لا تزال مفتاح العبور إلى البحر الأحمر. لقد تخلت القوى الغربية عن احدى هذين المفتاحين ، الا أن الآخر لا يزال في متناولنا ولا نعرف بعد فيما اذا كانوا يملكون الشجاعة للحصول عليه ، كما فعل الاميرال البرتغالي منذ زمن بعيد ، بل ان ذلك رهن بالمستقبل » .

وعلى الرغم أن اقتراح كيلي الزاعم أن الاستعمار البرتغالي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر هو المرشد الأفضل الذي على السياسيين المعاصرين أن يهتدوا

به، قد يبدو لبعض القراء غريباً مستنكراً، فان تبسيطاته للتاريخ تمثل خير تمثيل الاتجاه السائد حالياً. فهو يدعي أن الاستعمار يؤدي الى الهدوء والاستقرار، كأنما اخضاع ملايين البشر لا يزيد كونه غير نشيد ريفي يبعث الرضا والاطمئنان. وكأنما تلك الأيام هي أفضل أيامهم. أما شعورهم الجريح وتاريخهم المحرف وقدرهم البائس فلا اعتبار لها. طالما أن في مقدورنا «نحن» أن نستمر في الحصول على ما يفيد «نا» = مصادر قيمة، ومناطق استراتيجية جغرافياً وسياسياً، وخزاناً ضخماً من الأيدي العاملة الرخيصة = وينبذ كيلي استقلال البلدان في أفريقيا وآسيا بعد قرون من الهيمنة الاستعمارية باعتباره شكلاً من أشكال الردة الى الهمجية والاستبداد. فالخيار العملي المتاح الوحيد، حسب كيلي، هو غزو جديد، بعد ما يصفه بالارث المشروع للنظام الامبريالي الاستعماري البائد. ويكمن في أساس هذه الدعوة الموجهة للغرب لأخذ ما يخصنا «نحن» حقاً وشرعاً، احتقار عميق للحضارة الاسلامية الوطنية السائدة في آسيا التي يريد «نا» كيلي أن نحكمها مجدداً.

لنطرح جانباً المنطق الانتكاسي المتردي في كتابات كيلي وآرائه، ومن شأنه ان احتضن الجناح اليميني الفكري الأمريكي صاحبه محتفياً مبجلاً — بدءاً من ويليام ب. يكلي في النيو — ريبيلك. ان العامل الاكثر اثارة في هذه النظرة التي يعرضها يكمن في كيف تفضل الحلول الجملية الشاملة للمشاكل التفصيلية الشديدة التعقيد والتشابك فوراً على كل ما عداها خاصة حين توصي باستخدام القوة والعنف ضد الاسلام. فلا يكلف أحد نفسه مشقة القول ماذا يمكن أن تكون عليه مجريات الأحداث داخل اليمن، أو تركيا، أو عبر البحر الأحمر في السودان، أو موريتانيا أو المغرب، أو حتى مصر على سبيل المثال. صمت يخيم على الصحافة المشغولة بتغطية أخبار أزمة الرهائن. وصمت في الأكاديمية المشغولة باسداء النصح لصناع قرار النفط والسياسة حول كيفية التنبؤ بالاتجاهات في الخليج. حول كيفية التنبؤ بالاتجاهات في الخليج وصمت في الحكومة التي تتطلع الى جمع المعلومات حيث يرشدنا أصدقاؤنا [كشاه ايران أو أنور السادات] للبحث

عنها فقط. فما الاسلام إلا ما يكتنز احتياطي النفط للغرب والقليل ما عدا ذلك ذو قيمة يستحق منا اهتماماً خاصاً.

لا نجد في الدراسات الأكاديمية حول الاسلام، وهي على ما هي عليه حالياً، إلا القدر اليسير لتقويم هذا الوضع أو تعديله. فهذا الميدان بأسره هو ميدان هامشي بالنسبة للثقافة العامة، بينما نجده في جوانب أخرى يتم اختياره من قبل الحكومة والشركات معاً. وقد أدى هذا الاختيار عموماً الى عدم أهلية هذا الميدان لتغطية الاسلام بطرق من شأنها أن تمدنا بمعرفة تفوق ما ندركه، عما يجري تحت السطح في المجتمعات الاسلامية. وهناك أيضاً الكثير من المشكلات الفكرية والمنهجية التي لا تزال بحاجة الى حلول: هل ثمة شيء هو السلوك الاسلامي؟ ما هي الوشيجة التي تربط بين الاسلام في صعيد الحياة اليومية الملموسة المعاشة والاسلام على صعيد العقيدة في المجتمعات الاسلامية المختلفة؟ ما مدى الفائدة الحقيقية للاسلام كمفهوم يعتمد لفهم المغرب والعربية السعودية وسورية وأندونيسية؟ واذا نحن أدركنا، كما تيقن الكثيرون في الآونة الأخيرة، أن العقيدة الاسلامية يمكن أن تعتبر مبرراً للرأسمالية والاشتراكية سواء بسواء، وللنضال كما للقدرية، وللشمولية المسكونية كما للانتقائية الضيقة، لو فعلنا ذلك لبدأنا نعي عمق الهوة الهائلة التي تفصل بين الوصف الأكاديمي للاسلام ـــ وهو ما تعرضه وسائل الاعلام عرضاً كاريكاتورياً هزلياً بالتأكيد ـــ وبين الوقائع الخاصة المميزة القائمة في عالم الاسلام.

رغم ذلك، هناك اجماع حول الاسلام باعتباره كبش فداء لكل ما لا يروق لنا من أنماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة في العالم. فالبنسبة لليمين، يمثل الاسلام الهمجية، وبالنسبة لليسار يمثل الثيوقراطية في العصر الوسيط، أما بالنسبة للوسط فهو يمثل نوعاً من الغرائبية الممجوجة. إلا أن ما يربط هؤلاء جميعاً هو انه رغم أن نزراً يسيراً فقط معروف عن العالم الاسلامي فلا يوجد هناك الكثير الجدير برضانا ومباركتنا.

ما يعد ذا قيمة في الاسلام هو بشكل أساسي عداؤه للشيوعية، إلا أن المفارقة

المضحكة تكمن في أن العداء الاسلامي للشيوعية يكاد أن يكون على الدوام صنواً للأنظمة القمعية الموالية لأمريكة. وخير شاهد على ذلك باكستان ضياء الحق.

انني هنا لا أدافع عن الاسلام بل جل ما أقوم به هو وصف استخدام الغرب للإسلام، كما يوصف ذلك الاستخدام في العديد من المجتمعات الاسلامية ـ وان كنت لم أصرف من الوقت في هذا المنحى الأخير إلا القليل. ومن هنا كان نقد سوء استخدام الاسلام في الغرب لا يعني بأي حال اننا نضرب صفحاً عن مثل ذلك في المجتمعات الاسلامية. بل ان الحقيقة أننا نجد في الكثير من المجتمعات الاسلامية ـ بل الكثير جداً ـ أن القمع وكبت الحريات الشخصية والنظم غير الممثلة للشعب، بل التي تقوم غالباً على مساندة الأقلية، غالباً ما تزيف شرعيتها أو هي تفسر ويفتى بشأنها تحايلاً بالاستناد الى الاسلام، والاسلام، على صعيد العقيدة، براء من كل ذلك براءة كل دين عالمي عظيم سواه.

والواقع أن سوء توظيف الاسلام يساير أيضاً في حالات كثيرة السلطة والقوة البالغة التطرف في الدولة المركزية.

غير أنني أعتقد، رغم كل ما تقدم، أن في وسعنا أن نتبين الصلة بين ما دأب الغرب يدعيه عن الاسلام، وما قامت به كردود أفعال بعض المجتمعات الاسلامية رغم أننا لا نلقي باللائمة على كاهل الغرب بسبب كل ما هو غير صحي في العالم الاسلامي. ولقد أنتجت الجدلية بين الاثنين ـ مع التذكير أن الغرب محاور بالغ الأهمية بالنسبة لأجزاء كثيرة في العالم الاسلامي إما بوصفه قوة مستعمرة سابقاً أو شريكاً تجارياً هاماً حالياً ـ ما أسماه توماس فرانك و ادوارد فيزبند «سياسة الكلمة»، وذلك ما أبغي تحليله وتفسيره. فالأخذ والرد بين الغرب و الاسلام، والتحدي والاستجابة، وفتح متنفسات خطابية معينة واغلاق أخرى تشكل «سياسة الكلمة» التي يقوم بها كل من الطرفين ويعتمدها بخلق أوضاع وتبريرات وغلق خيارات وتوكيد بدائل ومحاولة فرضها على الطرف الآخر.

فحين استولى الطلاب الايرانيون على سفارة الولايات المتحدة في طهران كانوا يستجيبون لا لدخول الشاه السابق الى الولايات المتحدة فقط، وانما أيضاً لما اعتبروه تاريخاً متطاولاً من الاذلال الذي جرعتهم اياه القوة الأمريكية. فقد حدثتهم الأعمال الأمريكية السابقة عن التدخل المستمر في حياتهم، ولذلك قاموا كمسلمين يشعرون أنهم كانوا مسجونين في وطنهم بأسر وسجن مواطنين أمريكيين واحتفظوا بهم رهائن على أرض تابعة للولايات المتحدة أي في السفارة الامريكية في طهران. ورغم أن الأعمال نفسها عبرت عن المواقف إلا أن الكلمات وما دلت عليه من تحركات للقوة هي التي سوت السبيل لتلك الأفعال، بل انها — الى حد بعيد — جعلتها ممكنة التحقيق.

انني أعتقد أن هذا النمط على درجة قصوى من الأهمية لأنه يؤكد الوشائج المتينة المبنية بين اللغة والواقع السياسي، على الأقل فيما يختص بالمناقشات التي تدور حول الاسلام. فأعسر المطالب تحقيقاً على الأغلبية الكبرى من الخبراء الأكاديميين المختصين بالاسلام هي أن يعترفوا بأن ما يقولونه وما يقومون به بوصفهم باحثين علميين انما يتم في سياق مفعم بالسياسة، بل هو — من بعض جوانبه — تهجمي مهين. فكل ما يمت الى دراسة الاسلام بصلة وخاصة في العالم الغربي المعاصر مشبع بالأهمية السياسية، الا انك تكاد لا تجد أي كاتب حول الاسلام سواء كان خبيراً أو مثقفاً غير مختص يعترف بهذه الحقيقة فيما يقول أو يمارس. لأنه يفترض أن الموضوعية تتأصل راسخة في صلب الانشاء المثقف حول المجتمعات الأخرى، رغماً من التاريخ الطويل للقلق السياسي والأخلاقي والديني الذي تنطوي عليه كل المجتمعات الغربية والاسلامية في ما يختص بالآخر الغريب والأجنبي.

ففي أوربة على سبيل المثال جرت العادة تقليدياً أن ينتسب المستشرق مباشرة إلى الادارات الاستعمارية وما بدأنا حالياً بمعرفته عن مدى التعاون الوثيق بين البحث العلمي والفتح الاستعماري العسكري المباشر لهو اكتشاف مثير للاكتئاب حقاً. مثلنا على ذلك المستشرق الهولندي س. سنوك هيرغرونج الذي استغل الثقة

التي منحه اياها المسلمون لتخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد المسلمين الاندونيسيين في سومطرة ومع ذلك لا تزال الكتب والمقالات تتدفق مثنية ومقرظة الطبيعة غير السياسية للبحث العلمي الغربي وثمار العلم الاستشراقي وقيمة الخبرة المتخصصة الموضوعية .

ولا ننسى انه في الوقت نفسه نفتقد أي خبير مختص في الاسلام لم يسبق له أن كان مستشاراً أو موظفاً في الحكومة أو الشركات المتعددة أو وسائل الاعلام المختلفة . والنقطة التي أثيرها هنا تكمن في وجوب الاعتراف بهذا التعاون وادخاله في الاعتبار ، لا لأسباب أخلاقية فحسب وانما أيضاً لأسباب فكرية .

فلنقل اذن بأن الانشاء حول الاسلام لم يكن فاسداً باطلاً من أساسه فهو بالتأكيد مشوب بألوان الوضع السياسي والاقتصادي والفكري الذي ينشأ فيه . وينطبق هذا على الشرق انطباقه على الغرب . ولأسباب بينة كثيرة ليس من قبيل المغالاة والافراط في المبالغة أن نقول إن كل انشاء حول الاسلام له مصلحة ما في قوة أو سلطة معينة .

لكنني أحب أن اكون واضحاً فيما يتعلق بهذه النقطة ، فأنا لا أقول ان كل بحث علمي أو كتابة حول الاسلام هي بلا طائل . بل على العكس : انني أعتقد أن فائدتها اكبر من سلبياتها ، فهي كشاف مفيد يبين المصالح التي تخدمها . ولا أستطيع الجزم ما اذا كان ثمة وجود لليقين المطلق أو المعرفة اليقينية الكاملة في الأمور المتعلقة بالمجتمع الانساني ، ولعل مثل ذلك موجود في الأمور المجردة ــ وهذا افتراض لا أجد صعوبة في قبوله ــ إلا أنه في الواقع الحالي فإن اليقين فيما يختص بأمور مثل الاسلام هو نسبي يعتمد على من ينتجه . ومن الجدير بالملاحظة أن مثل هذا الموقف لا يحول دون تصنيفات معروفة مثل جيد ــ سيىء ــ لا بأس ، ولا دون امكانية قول الأشياء بدقة موثوقة . بل ان كل ما يطلبه ببساطة أن يتذكر كل من يتكلم عن الاسلام ما يعرفه أي طالب مبتدىء من طلاب الأدب . أي أن كتابة النصوص الخاصة بالواقع الانساني أو قراءتها تنشط

بفعالية عوامل متعددة تفوق ما يمكن تبريره أو حمايته بأسماء ودفعات أيديولوجية من طراز « الموضوعية » .

ولذلك فأنني أبذل أقصى الجهد لتحديد الوضع الذي تنشأ منه العبارات ، ويبدو لي انه من المهم ملاحظة أن الجماعات المتنوعة في المجتمع التي لها اهتمام ومصلحة في الاسلام، وبالنسبة للغرب عموماً والولايات المتحدة بشكل خاص، نجد أن نفوذ الجماعات التي يتكون منها هذا النفوذ [المؤسسات الاكاديمية ، الشركات المتعددة الجنسيات ، الاعلام ، الحكومة] وبسبب الغياب النسبي لأي انحراف عن جادة السنن التي خلقها . والنتيجة من كل ذلك كانت تبسيطاً اجمالياً للإسلام بحيث يمكن تحقيق أهداف تحايلية بارعة متعددة ــ بدءاً من اثارة حرب باردة جديدة ، الى اضرام عدم التعاطف العنصري ، الى التعبئة ضد غزو محتمل ، الى الاستمرار في تشويه صورة العرب والمسلمين . والقليل من كل ذلك هو كما أعتقد في صالح الحقيقة أو اليقين. أما حقيقة هذه الأهداف التحايلية البارعة فمن المؤكد أنها تنفى على الدوام ونجد بدلاً من ذلك العبارات والبيانات المعلنة والأهداف المبتغاة وقد حجبت بحجاب من الخبرة المختصة المتعالمة ، بل العلمية . ومن النوادر الطريفة التي تنتج في هذا السياق أنه حين تتبرع البلدان الاسلامية بالمال للجامعات الأمريكية لانجاز دراسات عربية أو اسلامية تنطلق صيحة ليبرالية هائلة ضد التدخل الأجنبي في الجامعة الأمريكية ، أما حين تتبرع اليابان أو ألمانية بالمال فاننا لا نسمع أي تذمر من هذا القبيل . وبالنسبة لنفوذ الشركات وأثرها في تسيير أمور الجامعات ومن ثم الأ بحاث والدراسات الأكاديمية العلمية « الموضوعية » فذلك أيضاً يعتبر من الأمور الطبيعية بل والمستحسنة في كثير من الأحيان دون أن نشعر في أنفسنا بهذا التناقض .

في العشرين من كانون الثاني ــ يناير ١٩٨١ تم الافراج عن الامريكيين البالغ عددهم اثنين وخمسين المحتجزين أسرى رهائن في سفارة الولايات المتحدة في طهران لمدة ٤٤٤ يوماً ، فغادروا طهران أخيراً ووصلوا بعيد أيام الى وطنهم الذي رحب بهم بسعادة أصيلة . وأصبحت « عودة الرهائن » كما اصطلح على

تسميتها حدثاً اعلامياً امتد أسبوعاً كاملاً. وتم بث ساعات مطولة من التغطية التلفزيونية الحية التي غالباً ما كانت مليئة بالاقحام والعاطفة المجيشة حتى الهذيان، وقد صورت الحملة العائدين أثناء نقلهم إلى الجزائر ثم ألمانية فوست بونيت فواشنطن وأخيراً الى أماكن اقامتهم. وأصدرت غالبية الصحف والمجلات الأسبوعية الأمريكية ملاحق خاصة بالعودة تراوحت بين التحليلات الواسعة الاطلاع على كيفيات التوصل الى الاتفاق النهائي بين ايران والولايات المتحدة وما ترتب على هذا الاتفاق، الى التهليل للبطولة الأمريكية والتنديد بالهمجية الايرانية. وتخلل ذلك قصص شخصية متداخلة تحكي معاناة الرهائن حاكها، في الغالب، صحافيون جريثون وعدد هائل من الأطباء النفسيين المتلهفين لشرح وتحليل ما يعانيه الرهائن على وجه الصحة.

وليس من المستغرب أن تكون الادارة الأمريكية هي التي حددت مسار النقاش ولهجته وحدوده في كل نقاش جدي للماضي والمستقبل تخطى مستوى الأشرطة الصفراء التي رمزت الى الاحتجاز الايراني. وتركز بحث الماضي وتحليله على ما اذا كان يتوجب على الولايات المتحدة أن تعقد اتفاقاً مع ايران وما اذا ينبغي أن تتقيد الولايات المتحدة بهذا الاتفاق.

وبتاريخ ٣١ كانون الثاني ــ يناير ١٩٨١ هاجمت صحيفة الجمهورية الجديدة New Republic ما أسمته بالفدية كما كان متوقعاً، كما هاجمت ادارة الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر لاذعانها للارهابيين ثم نددت بكل الفرضية القابلة للتنفيذ قانوناً، وانتقدت اعتماد الجزائر كوسيط بينما هي بلد متمرس بايواء ارهابيين وحمايتهم وترتيب شؤون ما يحصّلونه من فدية. أما مناقشة أمور المستقبل فقد تم كبحها وضبطها باعلان ادارة الرئيس الجديد رونالد ريغان الحرب على الارهاب، فهذه هي الأولوية وليست مسألة حقوق الانسان التي تحتل مركز الصدارة في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية. حتى لو اضطرنا ذلك أن ندعم أنظمة قمعية «معتدلة» ان كانت هذه الأنظمة حليفة.

وبناء على ذلك ورد في تقرير بيتر ستيوارت في الكريستيان ساينس مونيتور

بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ــ يناير ١٩٨١ أن من المتوقع أن تجدول جلسات الاستماع في الكونغرس حول بنود اتفاقية اطلاق الرهائن .. ومعاملة الرهائن .. والتحقيق حول أمن السفارة .. والعلاقات المستقبلية بين الولايات المتحدة الأمريكية وايران.

وكإنسجام تام مع هذا المدى الضيق للمشكلات التي تناولتها أجهزة الإعلام أثناء الأزمة باستثناءات قلة قليلة، لم يجر أي فحص دقيق لمعاني ومدلولات الصدمة الايرانية وايحاءاتها المستقبلية والعبر التي يمكن أن تستفاد منها.

وقد جاء في الصاندي تايمز Sunday Times اللندنية بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ــ أن الرئيس كارتر نصح، حسبما تزعم، وزارة الخارجية قبل تركه الحكم، بتركيز الاهتمام العام على خلق موجة من النفور والسخط ضد الايرانيين. وسواء صحّ ذلك على أرض الواقع أو لم يصح فقد بدا ذلك أمراً معقولاً على الاقل. اذ لم يهتم أي مسؤول رسمي باعادة تقويم التاريخ الأمريكي الطويل الخاص بالتدخل في ايران وفي أجزاء أخرى من العالم الاسلامي.

وفي تلك الفترة كثر الحديث عن تركيز قوات في الشرق الأوسط. إلا أنه وحين عقدت القمة الاسلامية في الطائف في الأسبوع الأخير من كانون الثاني ــ يناير ١٩٨١ انقلب الأمر فكادت وسائل الاعلام الخاصة والعامة في الولايات المتحدة على وجه الخصوص وفي أوربة الغربية عموماً تهمله.

ولقد رافقت الأفكار الخاصة بالعقوبات والتوكيدات الجازمة التي علا صوتها حول ما يتعلق بالقوة الأمريكية معزوفة سيمفونية بالغة الاتقان والتفصيل تحكي معاناة الرهائن وعودتهم المظفرة. وتم تحويل الضحايا مباشرة الى أبطال «مما تسبب في إثارة حفيظة العديد من جماعات المحاربين وأسرى الحرب السابقين الأمر الذي من الميسر فهمه» والى رموز للحرية. كما تم تصوير محتجزيهم باعتبارهم وحوشاً دون مستوى البشر. وبهذا المعنى وتحقيقاً لهذا الهدف جاء في افتتاحية النيويورك تايمز في ٢٢ كانون الثاني ــ يناير «لينتشر الغضب والسخط والهياج

والاشمئزاز في الساعات الأولى التالية لاطلاق الرهائن» . ثم ، بعد فترة من امعان التفكير طرحت الصحيفة السؤال التالي في ٢٨ كانون الثاني ــ يناير : «ماذا ينبغي أن نفعل ؟ قد يخيف لغم المرافىء ، أو انزال رجال البحرية المارينز ، أو اسقاط بضعة قنابل أعداء عقلانيين . ولكن هل كانت ايران ــ وهل هي الآن ــ عقلانية ؟ «لقد كان هناك بكل تأكيد كما أشار فريد هاليداي في صحيفة لوس انجلوس تايمز في ٢٥ كانون الثاني ــ يناير الكثير مما يستدعي النقد في ايران بعد أن قدم الدين والهياج الثوري المستمر الدليل على عجزهما عن مد الدولة الحديثة بالقرارات اليومية الملائمة لما فيه فائدة الشعب عامة . وعلى الصعيد الدولي كانت ايران مكشوفة وغير حصينة وكان واضحاً غاية الوضوح أن الطلاب المهتاجين لم يعاملوا رهائنهم في السفارة الأمريكية بلطف .

غير أننا نجد مع ذلك أن الاثنين والخمسين رهينة أنفسهم لم يذهبوا الى حد القول بأنهم قد عذبوا أو تعرضوا لعمليات وحشية منظمة ، ويتجلى ذلك في نص مؤتمرهم الصحفي الذي عقد في وست بونيت بتاريخ ٢٨ كانون الثاني حيث قالت اليزابيت سويفت بصراحة بأن مجلة النيوزويك قد كذبت فيما نقلته على لسانها فاختلقت قصة عن التعذيب ، بالغت رسائل الاعلام في تضخيمها ، لا تمت الى الحقيقة بأدنى سبب .

لقد وفرت عودة الرهائن ، في وسائل الاعلام وفي الثقافة بوجه الاجمال ، القيام بقفزة من نوع خاص ــ هي تجربة بائسة مفعمة بالقلق ومريرة الطول ــ الى تعميمات هائلة حول ايران والاسلام . وبكلمة مختصرة تم مرة جديدة طمس وتبديد الديناميات السياسية لتجربة تاريخية معقدة في سبيل خدمة فقدان ذاكرة لا نظير له .

وها قد عدنا الى الأساسيات القديمة ذاتها ، فقد تم تقليص الايرانيين الى «رجال دين بدائيين حمقى» على يدي بوب الجل في أتلانتا كونستيتوشن بتاريخ ٢٣ كانون الثاني ــ يناير، وطرحت كلير ستيرلنغ في الواشنطون بوست في ٢٣ كانون الثاني ــ يناير منظومة تقول ان قصة ايران هي مظهر من مظاهر الرعب

والحرب التي يشنها الارهابيون ضد الحضارة. وبالنسبة الى بيل غرين في الصفحة نفسها من الواشنطون بوست يزيد الفحش الايراني احتمالات أن تنحرف حرية الصحافة التي تعرض أخبار ايران وتنقلب الى سلاح مصوب مباشرة الى قلب الوطنية وعزة النفس الأمريكية.

إلا أن هذا المزيج السامي المرموق من الثقة والقلق سرعان ما يفرغه غرين نفسه حين يتساءل بعد قليل إن كانت الصحافة قد ساعدتنا حتى نفهم ثورة الايرانيين. وهو سؤال يجيب عليه بسهولة مارتن كوندراك في وول ستريت جورنال بتاريخ ٢٩ كانون الثاني حيث كتب أن التلفزيون الأمريكي قد عالج الأزمة الايرانية بوصفها استعراض شذاذ ممن يجلدون أنفسهم بالسياط ويلوحون بالقبضات أو بوصفها أوبرا شعبية مبتذلة.

إلا انه كان هناك صحافيون جذبتهم المشكلة بجدية غير مصطنعة، فقد اعترف هـ.د.س. غرينواي في صحيفة واشنطن غلوب بتاريخ ٢١ كانون الثاني — يناير ١٩٧٩ بأن «الأذى قد لحق بمصالح الولايات المتحدة بسبب الحواز الأمريكي بأزمة الرهائن الى حد استثناء كل ما عداها من القضايا الملحة» لكنه لم يتمكن من الوصول إلا إلى نتيجة واحدة واضحة:

«لن تتغير الحقائق العالمية التعددية وستكون الادارة الجديدة مقيدة بالحدود العملية التي تحد القوة في نهاية القرن العشرين».

أما ستيفن ايرلانجر فقد كتب في نفس الصحيفة بنفس التاريخ مادحاً كارتر لأنه أطفأ فتيل الأزمة فنجح بالتالي في جعل الحوار يفضي الى ما أسماه «عاطفة أقل وعقلانية أكثر».

أما النيو ريبيلك بتاريخ ٣١ — كانون الثاني — يناير فقد شجبت من جهتها صحيفة الغلوب «المجاملة التوفيقية دائماً» وهذا معناه أن أفضل طريقة لمعالجة ايران هي باعتبارها زيفاً منحرفاً في عملية إعادة بناء القوة الأمريكية ومحاربة الشيوعية.

والواقع أن هذا الخط المتعسكر في جوهره قد ارتقي به الى مصاف الايديولوجيا الأمريكية شبه الرسمية، ففي أهداف القوة الأمريكية وهو مقال نشر في الفيورين آفيرز شتاء ١٩٨٠ ــ ١٩٨١ يدّعي روبرت وتاكر أنه يشتق مساقاً جديداً وسطاً بين المنادين بـ «أمريكة الناهضة» والمنادين «بالعزلة».

ورغم ذلك تجده يقترح فيما يختص بالخليج وأمريكة الوسطى سياسة قوامها التدخل السافر، اذ، كما يقول، لا تستطيع الولايات المتحدة أن تسمح بأي تغيير في الوضع الداخلي هناك أو بانتشار النفوذ السوفياتي. وفي كلا الحالين فإن الولايات المتحدة هي التي تقرر أي تغييرات مسموح بها وأيها غير مسموح بها.

وقد اقترح ريتشارد بـايس، وهو زميل في جامعة هارفرد يشاطر تايكر رأيه أن تقوم الادارة الجديدة باعادة تصنيف العالم في معسكرين بسيطين: أمم موالية للشيوعية وأمم معارضة لها.

ولئن بدت العودة الى الحرب الباردة، على صعيد ما، كأنها تستلزم اصراراً حازماً جديداً فهي تشجع كذلك بعث الاستيهام ــ الذاتي. فالاعداء يشملون كل واحد يطلب من الغرب أن يعيد النظر في ماضيه لا انطلاقاً من الشعور بالذنب بل انطلاقاً من وعي الذات.

مثل هؤلاء الأشخاص يجب أن يهملوا ببساطة. وهناك بيّنة قوية تشهد على ذلك تصلح أن تكون رمزاً يدل عليه وقعت أثناء المؤتمر الصحافي في وست بوينت West Boint. فقد صرح أحد الحاضرين أن «قمة النفاق تكمن في أن تتحدث حكومة الولايات المتحدة عن التعذيب» في حين أن الولايات المتحدة قد أيدت تشويه الايرانيين اثناء حكم الشاه بهلوي. وكرر بروس لينجن القائم بأعمال السفارة الأمريكية في طهران وكبير ديبلوماسيي الولايات المتحدة المختصين بإيران، مرتين قوله انه لم يسمع السؤال، ثم انتقل سريعاً الى معالجة موضوع أشد ملاءمة وتجانساً هو الوحشية الايرانية والبراءة الأمريكية.

ويبدو أن أي خبير مختص أو شخصية اعلامية أو مسؤول حكومي لم يفكر بما

كان قد يحدث لو أن قدراً ضئيلاً من الوقت الذي صرف في تغطية الاستيلاء غير الشرعي على السفارة وعودة الرهائن وعزل هذه الأحداث وتفريدها ومسرحتها باحتدام وانفعال، قد صرف لعرض الاضطهاد والقمع والوحشية أثناء نظام الشاه السابق.

ألم يكن ثمة حد لفكرة استخدام الجهاز الضخم لجمع المعلومات لاعلام الجمهور القلق بحق عما يحدث فعلاً في ايران؟

أهل كان من الضروري الموجب أن تنحصر البدائل في أحد بديلين اما اثارة العواطف الوطنية أو إيقاد نوع من الغضب الجماعي ضد ايران «المجنونة»؟

وليست هذه الأسئلة باطلة أو عديمة الجدوى الآن وقد انتهت تلك المحادثة وما اعتراها من مغالاة مؤسفة. ذلك أنه من الضروري، والمجدي، والواقعي العملي أيضاً أن يعمد الأمريكيون بشكل خاص والغربيون عموماً الى التفكير في التشكيلات المتغيرة في السياسة العالمية وادراك كنهها.

هل يستمر حصر الاسلام في دور مورد النفط الارهابي؟

هل تواصل المجلات والأبحاث المتحرية التركيز على «من خسر ايران» أم أن من الأجدى استخدام الحوار والنقاش وصرف التفكير صوب قضايا أوثق اتصالاً بالجماعة الدولية والتطور السلمي؟

ولقد وفرت شركة الاذاعة الاميركية آ.بي.سي بعض الالماعات للكيفية التي يمكن لوسائل الاعلام، مثلاً، أن تستخدم بها، استخداماً مسؤولا، قدرتها الهائلة على توفير المواد الاخبارية للجمهور، وذلك في البرنامج الخاص الذي امتد ثلاث ساعات بعنوان «المفاوضات السرية» Secret talkes والذي بث في ٢٢ و٢٨ كانون الثاني — يناير ١٩٨١. ولقد وفرت هذه العروض التلفزيونية في طيات عرضها لمختلف الاساليب المعتمدة لتحرير الرهائن قدراً مذهلاً من المادة المجهولة

كان أهمها دلالة تلك اللحظات التي تضاء فيها فجأة المواقف اللاواعية والمتأصلة في النفس .

وتحدث لحظة من تلك اللحظات حين يصف كريستيان بورجيه لقاءه مع الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في البيت الأبيض أواخر آذار ـ مارس ١٩٨٠ . لقد لعب بورجيه ، وهو محام فرنسي على صلات مع الايرانيين ، دور الوسيط بين ايران والولايات المتحدة ، لقد حضر الى الولايات المتحدة لأنه ، رغم التوصل الى صيغة اتفاق مع البانامیین لاعتقال الشاه السابق ، فان هذا الحاكم المخلوع رحل فجأة الى مصر وهكذا عادوا مجدداً الى نقطة الانطلاق الأولى :

قال بورجيه :

« في لحظة معينة تحدث الرئيس عن الرهائن قائلاً : انك تدرك أن هؤلاء مواطنون أمريكيون ، هؤلاء أبرياء لا ذنب لهم .

قلت له : أجل سيدي الرئيس انني أدرك انك تقول انهم أبرياء ، لكنني أعتقد أن عليك أن تدرك أنهم ليسوا أبرياء بالنسبة للايرانيين فحتى لو لم يقم أي منهم شخصياً بارتكاب جرم ما فهم ليسوا أبرياء لأنهم ديبلوماسيون يمثلون دولة ارتكبت عدة فظائع في ايران . يجب أن تدرك أن الاجراءات المتخذة ليست موجهة ضدهم شخصياً ، تستطيع ادراك ذلك بالطبع ، فهم لم يلحق بهم أي أذى ، لم تجر أي محاولة لقتلهم يجب أن تدرك أن تلك العملية رمز وأن علينا أن نفكر بهذه القضية على مستوى الرموز » .

والواقع أن كارتر قد فكر ، على ما يبدو ، بحادثة الاستيلاء على السفارة في اطار منظور رمزي ، غير أنه كان يعتمد ، على عكس المحامي الفرنسي ، مرتكزات دلالية خاصة به . فبالنسبة اليه ، الأمريكيون تعريفاً أبرياء ، وهم بمعنى ما خارج التاريخ . فالتظلمات الايرانية ضد الولايات المتحدة ، كما قال في مناسبة أخرى ، لها تاريخ طويل . المهم أن الايرانيين الآن ارهابيون ، ولعلهم كانوا دائماً امة ارهابية كامنة . ومن المؤكد أن كل من يمقت أمريكة ويحتجز أمريكيين أسرى هو

خطر ومريض يتخطى حدود العقلانية والمنطق ، وحدود الانسانية وحدود السلوك الكريم .

وتشكل عدم قدرة كارتر على الربط بين ما أحس به بعض الأجانب بالنسبة إلى دعم الولايات المتحدة الطويل الأمد للحكام المستبدين المحليين وبين ما يحل بالامريكيين المحتجزين بشكل غير قانوني في طهران عرضاً باهراً من أعراض المرض . حتى لو كنا معارضين كل المعارضة لاحتجاز الرهائن وحتى لو لم تتملكنا غير الأحاسيس الايجابية بالنسبة لعودة الرهائن ، فثمة عبر مرعبة علينا أن نستخلصها مما يبدو كأنه ميل قومي رسمي لانكار حقائق واقعة معينة واغفالها . تنطوي كل العلاقات بين الناس وبين الأمم على طرفين اثنين ، ولا شيء اطلاقاً يجبرنا أن نحبهم أو نرضى عنهم ، ولكن يجب علينا على الأقل أن نعترف أنهم موجودون، وبالنسبة اليهم نحن نساوي ما نحن بالاضافة الى ما خبروه وعلموه وتعلموه عنا . وليست هذه المسألة مسألة براءة أو ذنب ولا هي مسألة وطنية أو خيانة ، فلا يملك أي من الطرفين الحقيقة كاملة مطلقة بحيث يستطيع أن يتغاضى عن الطرف الآخر ويغفله أو يتجاهل وجوده ، إلا اذا اعتقدنا بالطبع كأمريكيين اننا أبرياء بمجرد وجودنا الأصلي بينما الآخرون مذنبون بمجرد وجودهم الأصلي .

هذه الحقيقة البديهية لم تكن تشكل أي قيمة حقيقية لدى صناع القرار السياسي أو مديري وسائل الاعلام أو ، بالنتيجة ، الجمهور العريض الذي نادراً ما يولي هذه الجوانب أي أهمية تذكر ...

لننظر الآن في مادة مفيدة أخرى عرضتها وسائل الاعلام ، وهي البرقية السرية التي أرسلها بروس لينجن من طهران الى وزير الخارجية سايروس فانس بتاريخ ١٣ آب ــ أغسطس ١٩٧٩ وهي وثيقة تنسجم كل الانسجام مع موقف كارتر في أحاديثه مع بورجيه .

نشرت البرقية صحيفة نيويورك تايمز في صفحاتها الأولى بتاريخ ٢٧ كانون

الثاني ــ يناير ١٩٨١ ربما للعمل على تركيز اهتمام الأمة على حقيقة ماهية الإيرانيين أو ربما كمجرد هامش تهكمي ساخر للأزمة التي انتهت حديثاً .

وليست رسالة لينجن وصفاً أو تقديراً علمياً للنفس « الفارسية » التي يتناولها النقاش ، رغم تظاهره بالموضوعية الهادئة وبالمعرفة الخبيرة الضليعة بتلك الثقافة .

بل ان هذا النص ــ فيما أعتقد ــ عبارة ايديولوجية صممت مستهدفة أن تحول « بلاد فارس » الى جوهر أبدي حاد في ازعاجه مما يعزز الأخلاقية المتفوقة ويعلي شأن العقل الوطني السليم الذي يتمتع به الطرف الأمريكي في المفاوضات .

ومن هذه النقطة يضيف كل توكيد حازم بشأن « بلاد فارس » بينة ضارة بالصورة بينما هو يحمي أمريكة من التمحيص والتدقيق والتحليل .

ان هذه التعمية الذاتية انما تتم بلاغياً بطريقتين حري بنا أن نتملى التدقيق فيهما ، يتم أولاً حذف التاريخ أحادياً فتطرح آثار الثورة الايرانية في سبيل اظهار الخصائص الحضارية والنفسية الثابتة نسبياً التي تكمن في أساس النفسية الفارسية . ومن هنا وبناء على ذلك تضحي ايران الحديثة بلاد فارس السرمدية .

وفي المعادلة غير العلمية لهذه العملية يصبح الايطالي « داجو» و اليهودي « ييد » و الأسود « نيجر» الى ما هنالك [هذه أسماء تستخدم للتحقير في أمريكا] .

.. كم يبدو رجل الشارع صادقاً بالمقارنة مع الدبلوماسي المهذب !!

ويتم ثانياً تصوير الشخصية الوطنية الفارسية بالاشارة الى حس الايرانيين بالحقيقة « أي جنون الاضطهاد » .

ذلك أن لينجن لا يصدق أو يثق بمعاناة الايرانيين للخيانة والعذاب على حقيقتهما كما أنه يجردهم من الحق في أن يتوصلوا الى موقف من الولايات المتحدة

يقوم على أساس ، حسب ما يعتقدون ، ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في الواقع في ايران . وليس معنى ذلك أن الولايات المتحدة لم تفعل شيئاً في ايران وانما يعني فقط أن للولايات المتحدة الحق في أن تفعل ما تشاء دون أن يصدر عن الايرانيين أي شكاوى أو تذمر أو ردود فعل لا علاقة لها بذلك .

فالأمر الوحيد القيم في اعتبار لينجن هو « النفس الفارسية » الثابتة السرمدية التي تتخطى كل الحقائق الواقعية الأخرى .

لا بد أن يعترف معظم قراء رسالة لينجن ، كما لا ريب هو نفسه يعترف بذلك ، أن الواجب ألا نختزل الشعوب أو المجتمعات الأخرى الى مثل هذه النواة البسيطة المنحطة .

فنحن اليوم لا نسمح للانشاء العام أن يتناول السود أو اليهود بهذه الطريقة تماماً. قد نستخف هازئين ، واننا نفعل ، بتصوير الايرانيين لأمريكة باعتبارها الشيطان الاكبر . ذلك غاية في السذاجة ومنتهى الغباء وذروة العنصرية .

لكن الاختزال بالنسبة للعدو ، أي بلاد فارس هنا ، يُعتمد موثوقاً ، كما حدث حين قام مارتن بيرتز باعادة نشر صفحة من النثر العنصري المكشوف في صحيفة نيوريببلك بتاريخ ٧ شباط — فبراير ١٩٨١ وهي لمؤلف انكليزي من القرن السابع عشر بعنوان « التركي » .

وقد وصف بيرتز هذا النص بأنه كلاسيكي بالنسبة لدارسي الثقافة الشرق أوسطية ، ثم قال انه يعلمنا كيف يتصرف المسلمون . ونحن نتساءل عن ماهية رد فعل بيرتز لو تم طبع ونشر صفحة من نثر القرن السابع عشر عن اليهودي لاتخاذها دليلاً هادياً لفهم السلوك اليهودي المعاصر .

والمسألة،ما هي الأهداف المحددة التي تحققها وثائق على غرار ما أورده لينجن وبيرتز ، اذ أنها لا تعلمنا شيئاً عن الاسلام أو ايران كما أنها لم تساعد

ـــ آخذين بعين الاعتبار التوتر القائم بين الولايات المتحدة وايران بعد الثورة ــ في توجيه الأعمال الغربية في تعاملاتها مع الايرانيين.

تقوم مزاعم لينجن على أنه، كائنة ما كانت الأحداث، هناك «نزعة فارسية» لمقاومة «مفهوم العملية التفاوضية العقلانية بذاتها».

وهنا ينبغي أن نشدد أنها عقلانية فقط من وجهة النظر الغربية طبعاً، نحن نستطيع أن نكون عقلانيين أما الفرس فلا .. لماذا؟

لأنهم حسب قوله غارقون في الأنا المتضخمة والواقع بالنسبة اليهم ضغائن حاقدة وتحثهم العقلية السوقية على تفضيل الربح المباشر على الفوائد الطويلة الأمد، واله الاسلام الكلي القدرة يجعل مستحيلاً عليهم أن يفهموا مبدأ السببية. وبالنسبة اليهم الكلمات والواقع غير مترابطين بصلة.

وبالاختصار وطبقاً للعبر الخمس التي استنبطها لينجن من تحليله نجد أن الفارسي الذي ابتدعه لينجن هو مفاوض غير ثقة لا يركن اليه فهو لا يتمتع بأي ادراك للطرف الآخر ولا أي قابلية على الثقة والنوايا الطيبة ولا الخلق الكافي لضمان تنفيذ ما تعد به كلماته.

وتكمن روعة هذا الاقتراح المتواضع في أن كل ما نسب الى الفارسي أو المسلم، دون أي بينة اطلاقاً، يمكن أن نلصقه حرفياً بالأمريكي، ذلك المؤلف غير المسمى وشبه المختلق القابع وراء الرسالة.

مَنْ غير الأمريكي ينكر التاريخ والواقع في قوله الأحادي انهما لا يعنيان شيئاً بالنسبة الى الفارسي.

لنلعب الآن لعبة الصالون التالية: لنجد معادلاً اجتماعياً وحضارياً يهودياً ــ مسيحياً رئيسياً للخصائص التي يلصقها لينجن بالفارسي، الأنا المفرطة الطغيان ؟!

روسو، الحقد على الواقع !
كافكا ، الله الكلي القدرة !
العهد القديم والعهد الجديد ، انعدام الحس بمبدأ السببية !
بيكيت ، العقلية السوقية !
بورصة نيويورك ، الخلط المشوش بين الكلمات والواقع !

انك لن تجد غير قلة من الناس يرسمون صورة لجوهر الغرب استناداً الى كرستوفر لاش وحده فيما كتب عن النرجسية أو الى كلمات واعظ شديد التدين أو محاورة كراتيلوس لأفلاطون ، أو الى دعاية ملحنة أو دعايتين ، أو كشاهد للتدليل على عدم قدرة الغرب على الايمان بحقيقة مستقرة ثابتة أو واقع فاضل استناداً الى تحولات أوفيد محبوكة بأبيات مختارة من الشاعر الشهير ليفيتيكوس .

ان رسالة لينجن معادل وظيفي لمثل هذه الصورة ، وقد تبدو في سياق مختلف رسماً كاريكاتورياً في أحسن الأحوال ، وهجوماً فظاً غير ضار بشكل خاص في أسوأها .

وهي غير فعالة حتى بوصفها بعضاً من الحرب النفسية لأنها تكشف عن مواطن ضعف الكاتب أكثر مما تكشف عن ضعف خصمه .

انها تبين مثلاً أن الكاتب يبالغ في العصبية والتوتر بشأن خصمه وانه لا يستطيع أن يرى الآخرين إلا انعكاساً مرآوياً لنفسه .

أين قدرته على فهم وجهة النظر الايرانية أو حتى الثورة الاسلامية نفسها التي هي كما يجب أن يفترض غير نتيجة مباشرة للاستبداد الفارسي الشديد الوطأة والحاجة الى الاطاحة به .

أما بالنسبة الى النوايا الطيبة والثقة في عقلانية العملية التفاوضية فحتى لو لم نذكر أحداث سنة ١٩٥٣ يمكننا أن نقول الكثير عن محاولة الانقلاب ضد الثورة

التي تمت بتشجيع مباشر من الجنرال الأمريكي هويسر أواخر كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٩ .

ثم علينا أن نذكر أيضاً ما قام به العديد من المصارف الأمريكية [التي على غير عادتها ثنت ولوت القوانين طواعية لتلائم رغبة الشاه] التي كانت مستعدة خلال عام ١٩٧٩ أن تلغي القروض الايرانية المعقودة سنة ١٩٧٧ بحجة أن ايران لم تدفع الفوائد في الوقت المحدد .

وقد ذكر اريك رولو في تقريره في صحيفة اللوموند الفرنسية بتاريخ ٢٦/٢٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر انه قد عاين أدلة تثبت أن ايران قد دفعت فعلاً الفوائد قبل موعد استحقاقها . فلا عجب أن يفترض الفارسي أن مقابله في المعادلة هو خصم .. انه خصم حقاً .. وخصم فاقد الطمأنينة والثقة ذلك ما يقوله لينجن بوضوح .

لكن ، لنسلم جدلاً أن ليست القضية هي العدالة وانما تحري الدقة . ان رجل الولايات المتحدة الموجود في موقع الحدث يقدم المشورة لواشنطن .. فعلى ماذا يعتمد ؟

انه يعتمد على حفنة من الكليشيهات الاستشراقية لعله استمدها بحذافيرها من وصف السير ألفرد لايل للعقل الشرقي أو من سرد اللورد كرومر الخاص بالتعامل مع المواطنين الأصليين في مصر . فان كان ابراهيم يزوي وزير خارجية ايران آنذاك يقاوم حسبما يرى لينجن فكرة أن للسلوك الايراني آثاراً تنعكس على ادراك وصورة ايران في الولايات المتحدة فأي من صانعي السياسة الأمريكيين كان على استعداد أن يقبل مسبقاً فكرة أن للسلوك الأمريكي آثاراً تنعكس على ادراك وصورة الولايات المتحدة في ايران ؟

اذن لماذا سمح للشاه بالمجيء الى هنا ؟

أم أننا ، كالفرس ، ننطوي على النفور من حمل تبعات أفعالنا ؟

ان رسالة لينجن هي نتاج القوة غير المطلعة ولا الذكية ، وهي بكل تأكيد تضيف قليلاً الى ادراكنا وفهمنا لغيرنا من المجتمعات . وهي كنموذج للكيفية التي قد نواجه بها العالم لا توحي بالثقة . أما بوصفها صورة ذاتية غير مقصودة للأمريكي فهي اهانة صارخة . فما جدواها اذن ؟؟

انها تخبرنا كيف خلق ممثلو الولايات المتحدة ومعهم قسم كبير من المؤسسة الاستشراقية واقعاً لا يتوافق مع عالمنا ولا مع عالم ايران ، انما لم تقم أيضاً بتوضيح ضرورة نبذ مثل هذا التمثيل والتصوير الخاطىء الى الأ بد . فعلى الأمريكيين أن يستعدوا لمواجهة المزيد من المشاكل الدولية ، ووآأسفاه ، ستنتهك براءتهم مرة أخرى بلا جدوى .

نحن نسلم أن ايران والولايات المتحدة الأمريكية قد خاضتا غمار كرامات موجعة ، كما نسلم أيضاً أن احتلال السفارة الأمريكية في طهران كان مؤثراً على ارتداد ايراني شامل الى فوضى تقهقرية غير مثمرة .

رغم كل ذلك فلا حاجة بنا أن نلقط بصدور مشروحة الحكمة غير المكتملة من التاريخ الحديث . ان الحقيقة هي أن تغييراً يجري في الاسلام تماماً كما هو يجري في الغرب . وتختلف الأشكال والأنماط والسرعات ولكن بعض القلق والشك والأخطار يتماثل ويتشابه . ويوفر الاسلام والغرب، بوصفهما من هتافات حشد الأنصار ورص الصفوف، التحريض اكثر من التبصر والبصيرة . ويمكن القول أن يحول الاسلام والغرب، بوصفهما ردود أفعال متساوية ومتعارضة لعدم التوافق مع الوقائع المستجدة ، التحليل الى مناظرات جدلية ساذجة ، والخبرة الى أضغاث أوهام . لكن احترام التفاصيل الملموسة للخبرة الانسانية والفهم النابع من النظر الى الآخر بتعاطف رؤوف والمعرفة المكتسبة والمنتشرة عبر الأمانة الخلقية والفكرية. كل هذه هي بالتأكيد أهداف أفضل حالياً وان لم تكن أسهل من المواجهة والعداء الاختزالي، وان نحن استطعنا خلال ذلك أن نتخلص من كلا الكراهية

المترسبة والتعميمات المهينة الكامنة في دفعات على غرار « المسلم » و « الفارسي » و « التركي » و « العربي » و « الغربي » يكون انجازنا قد أرضى .

ادوارد سعيد
نيويورك ٩ شباط _ فبراير ١٩٩١

المعرفة والقوة

ادوارد سعيد

١ ــ سياسات تحليل الاسلام
المعرفة المطردة والمعرفة المتناقضة

لننطلق من الظروف الراهنة حيث يسود توتر بين « الاسلام » و « الغرب » وبين كل منهما وبين نفسه ، وربما يبدو من العبث المؤكد أن نطرح السؤال عما اذا كان ممكناً في الواقع أن يكتسب أتباع ثقافة ما المعرفة ببقية الثقافات . من التراث الاسلامي يقولون « اطلب العلم ولو في الصين » ، ومن التراث الغربي جرت العادة منذ الاغريق على الأقل على الاشادة بضرورة طلب المعرفة طالما هي تتصل بكل ما هو انساني وطبيعي . إلا أنه ساد الاعتقاد أن النتيجة المنطقية المترتبة على هذا المسعى تشوبها العيوب . واننا نجد حتى فرانسيس بيكون نفسه ــ الذي يعتبر كتابه « تقدم العلم » تدشيناً للفكر الغربي الحديث في أكثر أنماطه حماسة ومبادرة ذاتية ــ يعبر في الواقع عن شتى ضروب الشك في امكانية التخلص حقاً واجمالاً من العقبات المتنوعة التي يدعوها بالأصنام التي تنتصب في وجه المعرفة .

أما فيكو ، تلميذ بيكون الذي يكن له الاحترام والتقدير العميقين ، فيعلن

صراحة أن المعرفة الانسانية ما هي إلا ما صنعه الانسان، ولذلك فان الحقيقة الخارجية لا تعدو أن تكون اكثر من تحولات العقل الانساني. وتتناقض احتمالات الوصول إلى المعرفة الموضوعية بالبعيد والقريب تناقضاً اكبر منذ فترة ما بعد نيتشه.

في مقابل هذا التيار المتشائم الذي تغلب عليه الشكوك نجد أن دارسي الاسلام في الغرب ـــ وأيضاً درسي الغرب في العالم الاسلامي، وان كنت لن أناقشهم في هذا المقام ـــ يميلون اجمالاً الى التزام التفاؤل والثقة الى حد يبعث على الازعاج حقاً. ويبدو أن رواد المستشرقين الأول الحديثين في اوربة لم يراودهم الا قدر ضئيل من الشك بأن دراسة الشرق، والعالم الاسلامي قسم منه، هو الطريق الموثوقة للوصول الى المعرفة الكلية والشاملة.

لنقرأ أحدهم، وهو البارون داكستين الذي كتب في العشرينات من القرن التاسع عشر وتحديداً سنة ١٨٢٠.

يقول:

«بذات الطريقة التي اكتشف بها كوفييه وهمبولدات أسرار تنظيم الوجود في أحشاء الأرض سيقوم أ. رموزا، وسانت مارتن، وسلفستر دي ساسي، وبوب، وكريم، و أ. شليغل، بمتابعة واكتشاف كل التنظيم الداخلي والأسس البدائية للفكر الانساني من خلال كلمات وألفاظ و مصطلحات اللغة».

وبعد سنوات قليلة، أورد ارنست رينان في مقدمة بحثه: «محمد وبدايات الاسلام» تعليقات حول الامكانات التي تتفتح أمام ما أسماه «علماً نقدياً».

وقال رينان ان في امكان الجيولوجيا والمؤرخين والألسنيين أن يسبروا أغوار الأشياء البدائية الطبيعية ـــ أي الأصيلة والأساسية ـــ عن طريق دراسة آثارها دراسة دقيقة متأنية:

« يشكل الاسلام ظاهرة بالغة القيمة لأن نشوءه حديث نسبياً وليس أصيلاً » .

لذلك كان بوسع رينان أن يستنتج بأن دراسة الاسلام تشكل دراسة شيء يمكن أن يكسب الدارس معرفة أكيدة وعلمية به ، سواء بسواء .

وقد يكون هذا الموقف هو السبب في ان تاريخ دراسة الاسلام الكلاسيكي ــ الاستشراق ــ يكاد يخلو ، نسبياً ، من التيارات الشكية ، ويكاد يخلو ، كلياً ، من الاستبطان الذاتي المنهجي . فمعظم دارسي الاسلام لم يزايلهم الشك بأن الوصول الى معرفة موضوعية حقة بالاسلام ، أو بعض نواحي الحياة الاسلامية ، هو أمر يسير المنال ــ رغم ما فرضه زمانهم ومكانهم من قيود .

إلا أننا لن نجد إلا نفراً قليلاً من الباحثين الجدد يعربون بوضوح عن مثل غرور رينان في نظرتهم الى ما هو الاسلام .. فلن يقول أي باحث محترف ، مثلاً ، بما صرح به رينان من أن الإسلام يمكن معرفته لأنه يمثل حالة أساسية من التطور الانساني المكبوت .

غير انني لم أقع على أي نموذج معاصر للباحث في الإسلام خالجه شك في ذات العمل . واني أظن أن تقليد الجماعات في الدراسات الاسلامية التي تم توارثها سلالياً طوال قرنين من الزمن كان له الفضل جزئياً في حماية وتثبيت أفراد الباحثين فيما يقومون به دون ايلاء أدنى اعتبار للأخطار المنهجية التي تحدت الباحثين في أغلبية العلوم الانسانية .

وتوفر مقالة قريبة العهد نموذجاً جيداً للتدليل على ما أرمي اليه . وهي مقالة تحت عنوان :

« وضع الدراسات الشرق أوسطية »

وهذه المقالة نشرت في مجلة الأمريكان سكولار صيف ١٩٧٩ وكتبها عالم بريطاني من العلماء المشهورين المتخصصين بالاسلام غير أنه يقيم الآن ويعمل في

الولايات المتحدة. والمقالة في مجملها نتاج ذهن ينظر في أشياء روتينية بطريقة كسولة غير جذابة للاهتمام خصوصاً. إلا أن ما يستوقف انتباه غير المتخصص ــ علاوة على عدم مبالاة الكاتب بالقضايا الفكرية هو تقليد الأرومة الثقافية الأصيلة للاستشراق. وانها لمقالة جديرة بأن نقتبسها باسهاب.

يقول العالم المذكور:

«لقد دشن عصر النهضة مرحلة جديدة تماماً في تطور الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية في العالم الغربي. وقد يكون أهم عامل جديد هو نوع من حب الاستطلاع الفكري ما يزال يعتبر فريداً في التاريخ الاسلامي. ذلك أنه، حتى هذا الحين، لم تبرز أي رغبة شبيهة ولم يبذل أي جهد مماثل لدراسة وفهم حضارات غريبة أخرى، ناهيك عن كونها عدائية.

لقد حاولت مجتمعات شتى أن تدرس أسلافها، أولئك الذين شعرت أنها مدينة لهم والذين اعتبرت هذه المجتمعات أنها تتحدر منهم. وجرت العادة أن تجبر المجتمعات الخاضعة لسيطرة ثقافة غريبة أقوى منها على تعلم لغة من يسيطرون عليها ومحاولة فهم طرقهم وأساليبهم جبراً بالقوة أو غيرها من وسائل الاكراه. وباختصار.. لقد درست المجتمعات أسيادها بالمدلولات التي تحملها هذه الكلمة... إلا أن نوع الجهود التي بذلتها أوربة [وبنات أوربا فيما وراء البحار ــ الولايات المتحدة الأمريكية وكندا أساساً ــ] في دراسة ثقافات غريبة وقصية منذ عهد النهضة ولغاية اليوم يمثل شيئاً جديداً ومختلفاً كل الاختلاف.

كما أنه من الأهمية أن نلاحظ أن شعوب الشرق الأوسط في وقتنا الراهن تبدي القليل من الاهتمام ببعضها البعض، والأقل من ذلك بالثقافات غير الاسلامية في آسية وأفريقيا. والمحاولات الجادة الوحيدة لدراسة لغات وحضارات الهند والصين في جامعات الشرق الأوسط قامت بها تركيا العلمانية وإسرائيل وهما بلدان اختارا اختياراً واعياً طريقة الحياة الأوربية».

«فالى يومنا الراهن، ما تزال الحضارات غير الأوربية تواجه أعتى المشقة في فهم هذا اللون من حب الاستطلاع الفكري. حين بدأ رواد علماء الآثار الفرعونية في مصر وغيرهم من علماء الآثار الأوربيين التنقيب عن الآثار في الشرق الأوسط كان من المستحيل على الناس المواطنين المحليين أن يستوعبوا أن الأجانب يرغبون في بذل الكثير من الوقت والجهد والمال ويتعرضون لأصعب المخاطر والعقبات الكبيرة في سبيل غاية مجردة هي التنقيب عن الآثار القديمة التي تركها جدودهم شبه المنسيين وفك رموزها. ولذلك فقد بحثوا عن شروحات أخرى تبدو اكثر عقلانية. فكان علماء الآثار، بالنسبة للقرويين الساذجين، باحثين عن الكنوز الدفينة. وكانوا في نظر سكان المدن الأكثر اطلاعاً، جواسيس أو عملاء آخرين في خدمة حكوماتهم. وان الحقيقة التي تثبت أن فئة قليلة من علماء الآثار قد أدوا خدمات فعلية مشابهة لخدمات التجسس لا تجعل هذا التفسير لعملهم أقل عرضة للخطأ. بل انها تكشف عن عجز مؤسف عن فهم عمل أضاف فصولاً جديدة الى تاريخ الانسانية وأبعاداً جديدة الى الوعي الذاتي لأمم الشرق الأوسط. وان هذه الصعوبة في الاستيعاب والادراك مستمرة الى وقتنا الحالي، بل انها قد أصابت بعض الأكاديميين الذين لا يزالون يصرون على اعتبار المستشرقين اما باحثين عن الكنوز أو عملاء للامبريالية.

وارواء غليل حب الاستطلاع الفكري الجديد هذا قد أفاد كثيراً من رحلات الاستكشاف التي حملت الأوربيين الى أراض جديدة وغريبة فيما وراء المحيط. فقد ساعدت هذه الرحلات على كسر القوالب الفكرية الجامدة واوجدت حافزاً ومناسبة لمزيد من البحث».

ان هذا الانشاء الذي لا يكاد يعتمد على غير التوكيدات غير المسندة ينافي مباشرة كل ما كتبه عدد كبير من المستشرقين أنفسهم أو مؤرخو تاريخ أوربة منذ عصر النهضة حتى اليوم أو دراسو تاريخ التفسير منذ القديس أوغسطس حتى الآن. حتى لو افترضنا اننا اطرحنا جانباً حب الاستطلاع «الجديد والمختلف كل الاختلاف» ــ ولذلك فهو افتراض بديهي «فكري خالص» ــ وذلك شيء لم

يخالف الحظ أياً من الذين حاولوا قراءة نص وتفسيره في امتلاكه أبداً ــ لبقي لدينا الكثير، بل والكثير جداً الذي يجب أن نقبل به دون أي سند.

فنحن نستنتج من قراءة مؤرخي التاريخ الثقافي والتاريخ الاستعماري مثل دونالد لاش أو ج. هـ باري أن الاهتمام الأوربي بالثقافات الغريبة قد قام على أساس مواجهات واقعية مع تلك الثقافات حدثت ــ في العادة ــ نتيجة للتجارة أو الغزوات أو المصادفة.

فالاهتمام يستمد من الحاجة وتقوم الحاجة على أشياء حفزتها التجارب وهي أشياء توجد معاً ــ الشهوة والطمع، الخوف وحب الاستطلاع... الخ ــ وانها ناشطة دوماً حيثما وجد الانسان.

وبعد كيف يستطيع المرء أن يفسر ثقافة أخرى ان لم تكن ظروف مناسبة سابقة قد وضعت تلك الثقافة في متناول التفسير في الدرجة الأولى؟ وقد كانت هذه الظروف دائماً فيما يختص بالاهتمام الغربي بالثقافات الغريبة ظروفاً تجارية واستعمارية أو هي ظروف التوسع العسكري والاستعمار والغزو والهيمنة والامبراطورية. حتى عندما قام الباحثون المستشرقون في الجامعات الألمانية في القرن التاسع عشر بدراسة اللغة السنسكريتية وتبويب الحديث النبوي وشرحوا الخرافة كان اعتمادهم على خرافة حب الاستطلاع «الفكري» الخالص أقل بكثير من اعتمادهم على الجامعات نفسها والمكتبات وغيرهم من العلماء والمكانات الاجتماعية التي أتاحت المجال لتأدية أعمالهم وانجازها بشكل لائق.

وحده الدكتور بانجلوس وهو عضو من أعضاء «أكاديمية أصحاب المشروعات في لاجادو» في مؤلف سويفت «رحلات جيلفر» قادر على أن يحدد الحافز لكسب امبراطوريات أوربية شاسعة وما رافقها من معرفة في «ارواء غليل حب الاستطلاع الفكري الجديد» أساساً، فلا عجب اذن، أن ينظر المواطنون الاصليون المحليون غير الاوربيين الجهلة الى «حب الاستطلاع» والباحثين بهذا الارتياب

الكبير، اذ هل حل يوماً أي باحث غربي في بلد غير غربي الا بفضل القوة الغربية المسيطرة على ذلك البلد مهما يكن ذلك رمزياً وغير مباشر؟

ومن علامات غرور هذا المستشرق وجهله الفذ أنه غير واع، في الظاهر، للجدل المحتدم في حقل علم الانثربولوجيا حول التواطؤ بين الامبريالية وبين علم الأصول العرقية. وحين نجد شخصية كبيرة وذات مستوى علمي رفيع مثل كلود ليفي ــ شتراوس قد أعرب عن القلق، وليس الندم على كل حال، من كون الامبريالية احدى المكونات الأساسية في حقل دراسة العرقيات الميدانية.

حتى لو نحن غضضنا الطرف عن الاحتجاجات بشأن حب الاستطلاع الخالص فاني أعتقد أن الخلاصة التي سوف نتوصل اليها مع ذلك هي أن المنظومة المقدمة بأكملها حول الدراسات الشرق أوسطية هي ــ واقعياً ــ دفاع عن قدراتها الخالصة غير المشوبة بأي أخطاء في جوهرها ــ تاريخياً وثقافياً ــ على إخبارنا بالحقيقة المتعلقة بمجتمعات بعيدة وغريبة..

وقد تم تفصيل هذه النقطة باسهاب اكثر في المقالة نفسها بالاشارة الى أخطار تسييس هذا الحقل الذي لم يستطع أن يتفاداه، حسبما يدعي، غير بعض العلماء وبعض الدوائر الأكاديمية. وتبدو السياسة ــ في هذا المقام ــ مربوطة الى التحزبات الضيقة الأفق كأنما الباحث الحق فوق المماحكات التافهة والنزاعات السخيفة لأنه غارق في انشغاله بالأفكار والقيم الأبدية والمبادىء السامية لا غير.

ومن الأهمية البالغة أن نلاحظ عدم ايراد أي مثل. والنقطة التي تستوقف اهتمامنا في هذه المقالة كلها تكمن في دعوتها الى التزام العلمية والاجراءات العلمية اسمياً. فحين يبلغ الأمر حد القول ما هي حقيقة الدراسات الشرق الأوسط غير السياسية، أو ما يمكن أن تكونه، لا ينطق المؤلف بأي شيء. أي، بكلمات أخرى، ان مواقف البحث العلمي واتجاهاته وبلاغته أو بالاختصار ايديولوجيته هي ما يعتد به. أما المحتوى فهو، ببساطة، غير مفصح عنه، والأدهى من كل ما سبق هو وجود محاولة متعمدة لاخفاء العلاقات التي تصل بين البحث

العلمي وما يمكن أن ندعوه بالاهتمام بالقضايا الدنيوية بهدف الحفاظ على خرافة الحقيقة العلمية غير المتحزبة وغير المنحازة وغير السياسية !

ان كل ذلك يخبرنا الكثير عن المؤلف ، لا عن الحقل الذي يزعم الكتابة حوله ، وتلك مفارقة ساخرة لازمت كل المحاولات الأوربية والغربية في الكتابة عن المجتمعات غير الأوربية أو غير الغربية اجمالاً . وليس معنى ذلك أن كل الباحثين الآخرين قد أدركوا هذه الصعوبة . ففي عام ١٩٧٣ كلفت « رابطة دراسات الشرق الأوسط ــ ميسا » بالتعاون مع مؤسسة فورد فريقاً من الباحثين الخبراء للقيام بمسح شامل لهذا الحقل بأسره بهدف تقويم وضعه الراهن وحاجاته وآفاته ومشكلاته . وكانت النتيجة مؤلفاً ضخماً تحتشد الكتابة فيه احتشاداً بعنوان :

« دراسة الشرق الأوسط » . البحث والتدقيق العلمي في الانسانيات والعلوم الاجتماعية ...

وقد أشرف على تحريره ليونارد بيندر ونشر سنة ١٩٧٦ وبما أن هذا الكتاب هو من تأليف وانتاج جماعي فقد انطوى بالضرورة على مستويات متفاوتة ، إلا أن ما يلفتنا فيه هو الجو العام الذي يشيع فيه كله : جو أزمة وطوارىء ، وهو ما تفتقر اليه المقالة في صحيفة الأمريكان سكولار كل الافتقار . فمن وجهة النظر الخاصة بهذه الجماعة ــ الفريق الذي أعد الدراسة ــ من الباحثين الذين لا يقلون شهرة عن زميلهم البريطاني يعتبر حقل الدراسات الشرقية والشرق أوسطية خاصة ميدان عراك لم يحظ بالاهتمام اللازم والواجب ولا الأموال الكافية ولا الباحثين المطلوبين . (من المفارقات الساخرة أن أحد أعضاء لجنة البحث والتدريب التابعة لميسا ــ رابطة دراسات الشرق الأوسط ــ وهي اللجنة صاحبة هذه الدراسة أصلاً ــ سبق أن كتب قبل بضع سنوات فقط دراسة حول الدراسات الشرق أوسطية رفعها الى حكومة الولايات المتحدة وقد استخف فيها مزدرياً بالحاجة الى دراسات متخصصة حول الاسلام أو العرب : فهذا حقل ، كما ادعى ، يحتل ثقافياً وسياسياً مرتبة ثانوية في الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة) .

ويعالج بيندر في مقدمته احدى الأسس التي تنبعث منها كل المشكلات التي يذكرون معالجة صريحة لا مواربة ولا التواء فيها .

« ان الحافز الأساسي وراء تطور دراسات المناطق في الولايات المتحدة الأمريكية هو حافز سياسي » .

بهذه العبارة يستهل بيندر مقدمته ثم يتقدم دارساً كل المشكلات التنظيمية والفلسفية التي تواجه المختص المعاصر في دراسة الشرق الأوسط دون أن يغفل عن حقيقة أن الدراسات حول الشرق الأوسط هي جزء من المجتمع الذي تحدث فيه ان جاز التعبير ــ لأن هذه الحقيقة هي بالفعل حقيقة واقعة .

وفي ختام المسح الذي أجراه بيندر وبعد أن قال بصراحة ان كل المسائل المرتبطة بهذا الحقل حتى اكثرها جوهرية .. [هل يجب البدء بدراسة البنى الاجتماعية أو دراسة الدين أو أيهما أهم للدارس، البنى السياسية أم معدلات النمو الفردي والدخل الوطني] لا تخلو من الأحكام القيمية ، وبعد أن يقول كذلك انه حتى ان استبين التوجهات القيمية لدراسة الشرق الأوسط أشد دقة وخفاء من منظور المعلومات الحكومية في معظم الأحيان.. فلا يمكن تجاهل المشكلة . وأخيراً يحاول بيندر أن يلخص آثار السياسة وانعكاساتها في الحقيقة فيما ينتجه الدارسون الغربيون للثقافات الغربية .

يسلم بيندر فوراً بأن لكل باحث توجهات قيمية تفعل فعلها عند انتاج البحث العلمي . لكنه يردف ذلك بقوله : « ان التوجهات القيمية التي تنطوي عليها فروع الدراسة تقلل الأثر المشوش الذي تنطوي عليه الأحكام المسبقة المرتبطة بموضوع معين » .

إلا أن بيندر لا يوضح كيف تنجز فروع الدراسة هذا العمل ولا هو يحدد الشيء الذي تحتويه فروع الدراسة ليحول بمنتهى السهولة الأحكام القيمية الانسانية الى تحليلات أولمبية . لكنه يقحم جملة في نهاية دعواه كأنه يريد أن يعالج بها هذه المسائل ، انها جملة مبهمة بلا ضرورة ولا تنسجم أي انسجام مع ما

سبقها : انه يقول ان فروع الدراسة تزودنا بأساليب منهجية لتقصي تلك القضايا الأخلاقية التي تنشأ في سياق المنطقة . أي قضايا أخلاقية ؟ وأي أساليب ؟ وأي سياق لأي منطقة ؟ انه لا يوضح ذلك أبداً . بل ان الخلاصة التي ينتهي اليها عوضاً عن ذلك هي من الجدية المشوشة المربكة كل الارباك بحيث يخرج المرء باحساس راسخ الثقة في فروع الدراسة ـــ ولا يتولد لديه أي احساس اطلاقاً بما تنطوي عليه فروع الدراسة هذه واقعاً وفعلاً من أحكام قيمية .

حتى حين يتم الاعتراف بالضغوط السياسية الحادة التي تعتدي على الدراسات الشرق أوسطية يبرز ميل مقلق لطرد الضغوط وعدم الاكتراث بها ولاعادة توطيد السلطة التقليدية للانشاء الاستشراقي . ولا بد من القول إن ذلك الأمر ينبثق مباشرة من قوة داخل الثقافة الغربية تتيح لدارسي الشرق أو الاسلام صياغة جمل وبيانات حول الاسلام والشرق لم تواجه أية تحديات تذكر طوال سنوات مديدة . اذ من غير المستشرقين تكلم وما زال يتكلم بلسان الشرق ؟ فالشك لم يعتر مستشرقي القرن التاسع عشر ولا خالج في القرن العشرين باحثاً مثل ليونارد بيندر في أن الحقل ـــ وليس الشرق نفسه أو أهله ـــ قد وفر دوماً للثقافة الغربية كل ما تحتاج أن تعرفه عن الشرق. وبناء على ذلك فكل من يتكلم لغة فرع الدراسة ويتسلح بمفهوماته ويتقن مناوراته ويمارس تقنياته ويحوز مؤهلاته المعتمدة سيكون قادراً على تخطي التحامل المنحاز والظروف الحالية من أجل أن يقدم بيانات تدعي العلمية .

ولقد أمدت تلك القوة الاستشراق وما تزال تمده ببلاغته المتميزة بانعدام وعي الذات انعداماً مذهلاً . ففروع الدراسة حسبما يدعي بيندر ، لا أهل الشرق ، هي التي تقرر المسائل القيمية في أطر عامة وفروع الدراسة ، لا رغبات أهالي تلك المنطقة ولا أخلاقية الحياة اليومية هي التي تزودنا بأساليب منهجية لتقصي تلك القضايا الأخلاقية التي تنشأ في سياق المنطقة .

لذلك فان فروع الدراسة هي مؤسسات وليست نشاطات وهي من ناحية ثانية

تنظم وتسوي ما تدرسه باستعداد وسهولة يفوقان كثيراً تحليلها لنفسها أو تفكرها فيما تقوم به وتمارسه .

أنا لا أعتقد أن بالامكان وصف النتيجة النهائية لكل هذا بأنها معرفة كاملة بثقافة أخرى الا على سبيل التساهي الابداعي . ومن الحق أنه كانت هناك انجازات هامة في دراسة الاسلام حققت النصوص وحددت السمات الوصفية للاسلام الكلاسيكي أدق تحديد .

أما فيما يتعلق بالبعد الانساني للاسلام المعاصر أو مأزق أي نشاط تفسيري فلم تعطهما فروع الدراسة الخاصة بدراسات الشرق الأوسط ولم تضىء غوامضهما إلا قليلاً وقليلاً جداً .

وفي واقع الأمر فأنت لا تجد في دراسة الاسلام شيئاً حراً ولا تقرره الضغوط الملحة المعاصرة . وما أبعد هذا عن الموضوعية غير السياسية التي يزعمها الكثيرون من الباحثين الشرقيين فيما يقومون به وتكاد تبعد البعد كله عن الحتمية الآلية للماديين المبتذلين الذين يعتبرون كل نشاط فكري وثقافي مقرراً حتماً سلفاً بفعل القوى الاقتصادية وعن الثقة السعيدة التي تملأ المختصين الراكنين كل الركون الى الكفاءة التقنية لفروع الدراسة .

وفي موقع ما بين هذه الحدود المتطرفة تتشكل اهتمامات المفسر وتبرز لتنعكس في الثقافة كلها .

بيد أننا هنا أيضاً نلمس من الحرية والتنوع والخلاف أقل مما نبتغي تصديقه . فما هو الشيء الذي يجعل موضوعاً جديراً بالاهتمام من أصل ما كان يعتبر شأناً أكاديمياً أو أثرياً ان لم يكن القوة والعزم ، وكلاهما في المجتمع الغربي ـــ كما في غيره من المجتمعات الأخرى وان بدرجات متفاوته ـــ يميلان الى أن يكونا منظمين وقادرين على تحقيق أنواع معينة من التطبيق والتنفيذ وأن يمارسا سلطة مؤسساتية مهيبة تختص بهما ، تفوق ، وتعلو عن البراغماتية الفورية الضيقة المحدودة

النطاق؟ ولنعرض مثلاً بسيطاً يوضح هذه النقطة بسرعة ثم لننتقل الى بحث تفصيل أو تفصيلين آخرين.

لقد غدا الاسلام اليوم بالنسبة الى الجمهور العام في أمريكا وأوربة أخباراً بغيضة بشكل خاص وتنضوي وسائل الاعلام والحكومة والاستراتيجيون الجغراسيون والخبراء الأكاديميون المختصون بالاسلام ـ وان يكن هؤلاء هامشيين بالنسبة لمجمل الثقافة ـ في جوقة واحدة متناسقة: الاسلام تهديد للحضارة الغربية.

ولا يعني قولنا هذا بأي شكل من الأشكال بأنه لا يوجد في الغرب من صورة للاسلام غير الصور الهزلية العنصرية المزدرية به فقط. أنا لا أدعي ذلك كما أنني لا أوافق كل من يقول به بل ان ما أقوله هو أن صور الاسلام السلبية أشيع وأروج من كل ما عداها شيوعاً ورواجاً هائلين وان هذه الصور لا تطابق ما هو الاسلام [منطلقين من التسليم بأن الاسلام ليس حقيقة طبيعية بل هو بنية مركبة خلقها، الى حد معين، المسلمون والغرب بالطرق التي حاولت بسطها] بل هي تطابق ما تعتبره قطاعات بارزة في مجتمع معين أنه هو. وتمتلك تلك القطاعات القوة والعزم على نشر وترويج تلك الصورة المعينة للاسلام فتصبح هذه الصورة لذلك هي الصورة الأكثر شيوعاً والأكثر حضوراً من كل ما عداها.

وكما قلت من قبل يتم ذلك عبر ما يقوم به اجماع يضع الحدود والقيود ويمارس شتى أنواع الضغوط.

ولنأخذ مثلاً يفيدنا في ايضاح ذلك، سلسلة من حلقات دراسية أربع عقدت بين عامي ١٩٧١ و١٩٧٨ بتمويل من مؤسسة فورد في جامعة برنستون وهذه الجامعة مكان بالغ الجاذبية لعقد الحلقات والندوات الدراسية لأسباب اجتماعية وسياسية متعددة. وعلاوة على ما تتمتع به جامعة برنستون من شهرة عامة، فيها برنامج لدراسات الشرق الأدنى ذي الصيت الذائع والعالي التقدير وكان يسمى الى عهد متأخر «دائرة الدراسات الشرقية» وقد أنشأه البحاثة اللبناني الأصل

فيليب حتي منذ حوالي نصف قرن . ويسيطر اليوم علماء الاجتماع والسياسة على توجهات البرنامج كما هو شأن العديد غيره من برامج الشرق الأدنى . فالدراسات الاسلامية الكلاسيكية والأدب العربي والأدب الفارسي مثلاً أقل حضوراً في البرامج الدراسية وعدد الأساتذة المختصين فيها أقل مما هي عليه الحال بالنسبة للمسافات التي تعالج الشرق الأدنى الحديث في حقول الاقتصاد والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع . وان تعاون هذا البرنامج مع مؤسسة فورد ، وهي مؤسسة علم الاجتماع الأولى في هذا البلد ، يطرح قوة على أعلى درجة من السلطة في الولايات المتحدة . ومن هنا على أي موضوع يركز عليه في ظل مثل هذه الرعاية شهرة لا يعتريها أي شك ، ذلك أن ما تقترحه جامعة برنستون وما تموله فورد يوحي ويقصد له أن يوحي بتركيز وتوكيدات وأولويات ذات أهمية ونتائج سياسية ..

وبالاختصار ، عقدت هذه الحلقات الدراسية من أجل المصلحة القومية رغم أن الأكاديميين هم الذين أعدوا لها وصاغوها ونظموها . وقد نظر الى البحث العلمي على أنه يخدم تلك المصلحة. وأشار اختيار الموضوعات كما سنتبين الى أن التفضيلات السياسية قد انعكست فعلاً في صياغة الضرورات البحثية العلمية .

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن مؤسسة فورد وبرنستون لا تكترثان ، والأغلب أنهما لن تفعلا ، بحلقات دراسية مترفة تعالج النظريات اللغوية العربية في القرون الوسطى وان يكن بالامكان تبيان على أسس فكرية علمية بحت ، أن الحاجة ماسة الى حلقة دراسية من هذا النوع اكثر منها الى الحلقات التي تم عقدها .

لنترك ذلك جانباً . ما هي موضوعات تلك الندوات الدراسية ، ومن حضرها ؟ لقد عالجت إحدى الندوات موضوع : « الرق وما يتصل به من مؤسسات في أفريقية الاسلامية » . وقد شدد الاقتراح الخاص بتلك الحلقة أعظم التركيز على خوف الأفارقة وامتعاضهم من المسلمين ، كما لوحظ أن بعض الباحثين الاسرائيليين حاولوا تحذير البلدان الأفريقية من الاعتماد كثيراً على الشعوب

العربية «التي جلبت الفقر لبلادهم منذ زمن طويل ...» المشرفون على هذه الندوات، في اختيارهم لموضوع كالرق في الاسلام، كانوا يبرزون موضوعاً من المقصود له أن يسيء للعلاقات بين الأفارقة والعرب، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف لم يُدع أي باحث من العالم العربي الاسلامي لحضور الندوة.

ندوة أخرى عالجت نظام الملة، وكانت الفكرة الرئيسة فيها هي «أوضاع الأقليات ــ خصوصاً الدينية ــ في ظل الدولة الاسلامية في الشرق الأوسط». والملل هي تجمعات الأقليات التي تمتعت باستقلال ذاتي نسبي في الدولة العثمانية. وعقب انحلال الدولة العثمانية وانقضاء العهود الاستعمارية الفرنسية والبريطانية المتعددة نشأ عدد من الدول الجديدة في الشرق الأدنى أثناء الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب. ومعظم هذه الدول كانت، أو على الأقل حاولت أن تكون، دولة ــ أمة وكانت احداها اسرائيل الدولة ذات الأقلية الدينية في سياق المحيط الاسلامي، وكان لدولة أخرى ــ لبنان ــ أن تتمزق وتتفسخ الى درجة كبيرة على أيدي أقلية مقاتلة غير مسلمة تتلقى التأييد والدعم من الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل [وهي الأقلية المسيحية المارونية].

فنظام الملة اذن بعيد جداً عن أن يكون موضوعاً أكاديمياً محايداً، بل هو في صلب صياغته تعبير عن حل سياسي مفضّل للمشكلات القومية والعرقية في العالم الاسلامي المعاصر. ومهما كانت الأسباب الأكاديمية التي حفزت الى دراسته يظل نظام الملة يمثل تقهقراً الى زمن طوي اعتمدته القوى الامبريالية [العثمانية والغربية سواء بسواء] في تقسيم وحكم عدد هائل من السكان العنيدي الطباع ومواجهة احتمالات تمردهم وانشقاقاتهم، لا سيما ان هذه الاحتمالات كبيرة ينبغي اعداد العدة للتغلب عليها.

وقد كان التاريخ القريب العهد للعالم الاسلامي الحديث بالنسبة لأغلبية السكان السنة في الاقليم ولبعض الأقليات كذلك صراعاً من أجل تقدم يتجاوز التقسيمات الاثنية والدينية نحو نوع من الديمقراطية العلمانية. [وربما الوحدوية].

ولم تحقق هذا أي دولة من دول الاقليم إلا على صعيد السياسة المعلنة غير المطبقة عادة، إلا أن اسرائيل وجناح أقصى اليمين من الموارنة في لبنان هما فقط اللذان يشنان حملة نشطة للارتداد الى بنية الدولة التي تقوم أساساً على أقلية الاستقلال الذاتي العرقي مع روابط ثنائية تربطها بسيد خارجي أو قوى كبرى.

وكان من سوء حظ منظمي هذه الندوة أن تشاء الصدف أن يكون هذا هو الحل المقترح للفلسطينيين أيضاً. لأن الشخص الذي استقدم الى برنستون ليتكلم عن «الأقلية» العربية الفلسطينية كان أستاذاً جامعياً اسرائيلياً.

«كم من المفارقات الساخرة تكمن وراء هذه التسمية: الأقلية العربية الفلسطينية!!». وانها لحقيقة مذهلة أيضاً أن الدعوة لم توجه الى أعضاء من الأغلبية السنية كما هي الحال بالنسبة للمؤتمر الخاص بالرق.

لا يمكننا أبداً أن نعزو عقد مثل هذه الندوة في الوقت الذي عقدت فيه ١٩٧٨ الى اهتمامات البحث العلمي الخالص. ان تعقد مثل هذه الندوة ويشارك بها هذا العدد الكبير من الأعضاء المنتمين الى أقليات دينية وعرقية معادية أساساً لما وصف بأنه الحكم الاسلامي [ولذلك فهو ذو امكانات مفضلة لمخططي السياسة في الولايات المتحدة] لا يمكن أن ينسب الى البحث العلمي واهتماماته البريئة. وليس من قبيل المصادفة أن يكون المنظم الرئيسي لهذه الحلقة هو الباحث نفسه الذي أشرنا اليه قبل قليل. انه الشخص نفسه بالذات الذي أطرى حب الاستطلاع الفكري عند الغربيين وسخر بأولئك الأكاديميين وجميع أولئك غير الغربيين الذين يرون مؤامرة سياسية في كل شيء.

كانت الندوة الدراسية الأولى قد عالجت موضوع تطبيق التحليل النفسي وأساليب التحليل السلوكي في فهم المجتمعات العربية الشرق أوسطية الحديثة. وفيما بعد نشر مؤلف على أساس مجريات الأمور في تلك الندوة الدراسية.

وكانت هذه الندوة في معظمها، كما نتوقع، قامت على تركيز محوري على دراسات الشخصية الوطنية [تضمنت نقداً ثاقباً شديد الذكاء صارماً نفاذاً لعلي بنو

عزيزي حول ما يسمى بدراسات الشخصية الايرانية. وقد أصاب كل الاصابة حين ربطها بالأهداف التلاعبية المناورة التي تستهدفها القوى الامبريالية ذات المخططات بالنسبة لايران] .

وكانت النتائج محزنة في تحقيق ما توقعناه . فقد أبلغنا عدة مرات في الكتاب بأن المسلمين يعيشون في عالم استيهامي وأن العائلة قمعية ، وأن معظم الزعماء هم مرضى نفسانيون ، وأن المجتمعات غير ناضجة ، الى ما اشبه ذلك . ولا يُقدّم كل هذا من وجهة نظر باحثين مهتمين في تحويل هذه المجتمعات الى مجتمعات ناضجة ، بل انه يقدم من منظور علماء حياديين وموضوعيين ومتجردين من الأحكام المعيارية . ولا يدخل في الحسبان أي اعتبار للمواقع التي يمثلها مثل هولاء العلماء [مهما يبلغ حيادهم وتجردهم عن الأحكام المعيارية] . بالنسبة للعلاقة مع قوى الشركات الكبرى والحكومية اضافة الى الاهتمامات السياسية ، ولا للأدوار التي تلعبها أبحاثهم المتقصية في تنفيذ السياسات الحكومية الخاصة بالعالم الإسلامي ولا للدلالات المنهجية التي يوفرها علم النفس في دراسة مجتمع ضعيف من قبل مجتمع أقوى منه .

الحلقة الدراسية الرابعة كانت بعنوان .

« الأرض والسكان والمجتمع في الشرق الأدنى : دراسات في تاريخ الاقتصاد منذ بزوغ الاسلام حتى القرن التاسع عشر» .

وهذه الحلقة الندوة تفتقر أيضاً الى تحري تلك المسائل التي أثرناها . وكما هي حال الندوات الدراسية الأخرى طرحت هذه الندوة نفسها أيضاً على أنها بحثية علمية وموضوعية وغير منحازة ، وان كان من الميسور أن نرى ، تحت السطح ، أحد اهتمامات السياسة المقلقة الملحة : فهو، في هذه الحالة ، الاهتمام بالعلاقة بين ملكية الأرض والأنماط الديمغرافية وسلطة الدولة بوصفها مؤثرات للاستقرار [أو عدم الاستقرار] في المجتمعات الاسلامية الحديثة .

ينبغي ألا نستنتج أن كل اسهام في هذه الندوة هو اسهام عديم القيمة، موضوعياً أو أن كل باحث شارك فيها هو طرف في مؤامرة شائنة. ذلك أن منظمي هذه الندوة قد عملوا بمنتهى الحكمة لتحقيق توازن بين وجهات النظر المطروحة، وحرصوا على أن تبدو هذه الندوة حين تقوّم تقويماً شاملاً جادة ومسؤولة. لكننا من ناحية أخرى يجب ألا نقع في فخ النظر الى العملية بأسرها ــ أي تنظيم سلسلة الندوات الأربع ــ على أنها لا تعدو أن تكون المجموع الآلي لأجزائها المستقلة المبعثرة. بل ان هذه الحلقات فيما اختير لها من موضوعات واتجاهات عامة شاملة قد أخذت على عاتقها تشكيل وعي بالاسلام في أطر من شأنها اما أن تبعده بوصفه ظاهرة عدائية أو أن تركز الانتباه على نواح معينة من نواحيه وتبرزها لأن بالإمكان ادارتها في اطار السياسة.

وفي هذا المجال كانت الندوات الدراسية التي عقدتها برنستون منسجمة مع تاريخ غيرها من برامج دراسات المناطق الخاصة بالعالم الثالث في الولايات المتحدة ــ ومنها على سبيل المثال فترة ما بعد الحرب مباشرة في الدراسة الأكاديمية الخاصة بالصين.

إلا أن الفرق يكمن في أن البرامج الاسلامية ينبغي أن تراجع وتنقح فما تزال تهيمن عليها مفهومات بائدة عفا عليها الزمان غامضة كل الغموض [مثل مفهوم كلمة اسلام] ومصطلحات فكرية لا صلة تربطها بما قد تم في العلوم الانسانية اجمالاً وفي المجتمع بأسره. فما يزال ممكناً أن تقال أشياء عن الاسلام مرفوضة بديهياً من قبل اليهودية، والأسيويين. والسود، وما يزال ممكناً أن تكتب الدراسات الخاصة بالتاريخ والمجتمع الاسلاميين التي تغفل بخفة ومرح كل تقدم أحرزته نظرية التفسير منذ أيام نيتشه وماركس وفرويد.

والمحصلة هي أن الدارسين الذين يوجهون اهتمامهم نحو المشكلات المنهجية للتاريخ العام أو تحليل النصوص مثلاً، لا يجدون ما يفيدون منه فيما يجري في دراسة الاسلام إلا في القليل النادر. عوضاً عن ذلك، فالحلقات البحثية الدراسية

التي نظمتها برنستون أبلغ شاهد على اي عمل بحثي يعالج الاسلام [كما ظهر المؤلف الخاص بعلم النفس في الدراسات الشرق أوسطية وتنشر مراجعة له في مجلة أو مجلتين من المجلات ذات التخصص العالي والمحدودة التوزيع ، ثم يختفي] .

وهذه الهامشية ، أو قل القطيعة وعدم الارتباط بالثقافة العامة ، هي المسؤولة فعلاً عن اتاحة المجال للدارسين كي يستمروا في القيام بما كانوا يقومون به ، ولوسائل الاعلام كي تتولى نشر وترويج الصور الهزلية الكاريكاتورية العنصرية للشعوب الاسلامية .

وبهذه الطريقة يخلد التشكيل البحثي نفسه ، ويستمر زبائن الاسلام أخباراً في تجرع الجرعات الهائلة من العقاب الاسلامي ورقصات الحريم وحيلهن ، التي كانوا ولا يزالون يتجرعونها ، طوال عقود . وحين يتجرأ الخبير على الظهور أمام الجمهور العام فانه يفعل ذلك بوصفه خبيراً استحضر لأن حالة طارئة قد حاقت بالغرب دون أن يكون مستعداً لها .

وما يدلون به من آراء أو تعليقات أو مداخلات غير معقولة أو ملطفة لا يصاحبها أي تعاطف مع الاسلام ، كما هي الحال مثلاً مع بريطانية وفرنسة ، فهولاء الناس ــ الخبراء ــ يعتبرون تقنيين يملكون مجموعة متينة من [كيف تصنع] و [التعبير لدوايت ماكدونالد] يعرضونه على الجمهور العام المتلهف وينجذب الجمهور اليهم قانعاً راضياً لأنهم الجواب عما دعاه كريستوفر لاش :

« الطلب الذي لم يسبق له مثيل للحصول على الخبراء ، من تقنيين واداريين [وقد خلقه ما يسميه لاش « النظام ما بعد الصناعي »] . وقد ازداد اعتماد كل من الحكومة والشركات تحت وطأة ضغوط الثورة التكنولوجية والازدياد السكاني واستطالة حالة طوارىء الحرب الباردة استطالة غير معينة ولا محددة ازدياداً كبيراً على جهاز ضخم من البيانات المنظومة التي لا يفهمها ولا يستفيد منها أحد سوى الخبراء المتخصصين ،

وصارت الجامعات نفسها، تكيفاً مع هذا الموضوع، صناعات لانتاج واسع النطاق للخبراء».

وسوق الخبرة جذاب وفير الربح بحيث يكاد كل عمل حول الشرق الأوسط يقصر توجهه عليه وحده. وهذا أحد الأسباب في أنك لا تجد في أي من المجلات العالية المستوى (وبالمناسبة، ولا في أي من الكتب الحديثة التي نشرها مؤخراً علماء مرموقون) أي اهتمام ينصب على الأسئلة الأساسية: لماذا الدراسات الشرق أوسطية؟

ولحساب من يتم اجراؤها؟ ان الغاء الوعي المنهجي ينسجم كل الانسجام مع توفر السوق [والتي تمثلها الحكومات، والشركات العملاقة، والمؤسسات] فالأمر ببساطة أن المرء لا يطرح السؤال لماذا هو يفعل ما يفعله ان كان الزبائن المحتملون المعجبون، أو على الأقل، المحتمل قبولهم ورضاهم، متوفرين. والأدهى من ذلك أن الباحث يكف عن التفكير منطلقاً من الاقليم والناس الذين تجري حولهم الدراسات ومتخذاً منهم أطراً لبحثه. فالاسلام، ان كان «الاسلام» هو موضع الدراسة وموضوعها الأساس، لا يكون محاوراً، بل يكون سلعة. وتكون المحصلة الاجمالية نوعاً ما من الثقة المؤسساتية غير الجديرة فعلاً بالاعتماد. ويُعمد الى التمسك بالأمانة العلمية والاستقامة والكمال الخلقي في الحقل المعين والدفاع عنها في وجه الناقدين الخارجيين وتصبح البلاغة البحثية شديدة الغرور والصلف في انكار التحزب السياسي، ويحصن الاطراء والمديح الممارسات الراهنة الى اجل غير مسمى.

ان ما أقوم بعرضه ووصفه هو عمل يتسم بالوحدة الى حد موحش، في جوهره، ومعنى ذلك في هذه الحالة أن عمل الباحث هو ردود أفعال تستجيب لما يبدو ان المصالح المتضاربة تفرضه، وهو يسترشد في عمله بالسنن التقليدية أكثر مما يلبي ضرورات التفسير الأصيل، والأهم من كل ذلك هو أن الثقافة العامة تحجر عمله في غيتو، فتصيره هامشياً إلا في أوقات الأزمة. ولا يكاد يوجد

حضور للشرطين اللازمين لمعرفة ثقافة أخرى ــ الاتصال غير القسري بثقافة غربية عبر تواصل وتبادل حقيقيين، والوعي الذاتي فيما يختص بالمشروع التفسيري نفسه ــ ويعزز هذا الغياب العزلة والضيق والانغلاق والسذاجة التي تتسم بها تغطية الاسلام.

من المهم أن نلاحظ أن هذه الأشياء تظهر بجلاء أيضاً أن تغطية الاسلام ليست تفسيراً بالمعنى الأصيل للتفسير، بل انها توكيد للقوة. ان وسائل الاعلام تقول ما تشاء عن الاسلام لأنها تستطيع أن تفعل ذلك فتكون النتيجة المترتبة على ذلك أن العقاب الاسلامي والمسلمين «الأفاضل» [أفغانستان مثلاً] يسيطرون على المسرح بدون أي تمييز ولا يلتفت الى تغطية غير ذلك ــ الا فيما ندر. والسبب هو أن كل ما يقع خارج تعريف الاجماع لما هو مهم يعتبر غير ذي صلة بمصالح الولايات المتحدة وبتعريف وسائل الاعلام للقصة المثيرة الجيدة.

وتستجيب الجماعة الأكاديمية ــ من الجهة الأخرى ــ لما تعتبره هي، حسب تأويلها، الحاجات القومية وحاجات الشركات فتكون نتيجة ذلك أن تستمد موضوعات اسلامية ملائمة من كتلة ضخمة من التفاصيل الاسلامية وتقوم هذه الموضوعات المختارة [كما رأينا، الرق ونظام الملة وما أشبه ذلك] بتعريف وتحديد كل من الاسلام والدراسة الصحيحة اللائقة بالاسلام بحيث يستثنى كل شيء لا يتواءم منسجماً مع حدود هذين التعريفين. حتى حين يصدف أن تنظم الحكومة أو احدى دوائر الشرق الأوسط في احدى المؤسسات مؤتمراً يعالج مستقبل الدراسات الشرق أوسطية (ومع ذلك، في العادة، ثورية لطيفة عن ماذا نحن فاعلون تجاه العالم الاسلامي) تستمر المجموعة البائدة نفسها من المفاهيم والأهداف في البروز، ولا يوجد أدنى تغيير يستحق التنويه.

فالرهان كبير جداً على هذا التكرار وليس أقله نظام الوصاية جيد الادارة والتطبيق. فكبار الخبراء في الحقل سواء كانوا من الحكومة أو من عالم الشركات الكبرى أو من الجامعات لهم في الغالب علاقات فيما بينهم، وبينهم وبين المتبرعين الموافقين الراضين.

ويعتمد الباحث الشاب على هذه الشبكة للحصول على المنحة أو الاعانة المالية ، ناهيك عن امكانية النشر في المجلات المعترف بها . ومن هنا فالتجرؤ على كتابة نقد غير ودي يتناول الباحثين المعترف بهم أو أعمالهم ــ في هذا الحقل اكثر من حقول التاريخ العام أو الأدب ــ هو مغامرة كبيرة الخطورة . ونتيجة ذلك هي أن مراجعات الكتب ، في معظمها ، تقريظ ومديح واطراء لا تثير أي حماسة وأن النقد كله يتوسل لغة متحذلقة مزخرفة في أكبر شكل ممكن ولا شيء يقال اطلاقاً حول المنهجية أو الافتراضات . واغرب حذف ــ وأكثره روتينية ــ هو حذف تحليل العلاقة بين البحث العلمي ومختلف أشكال القوة في المجتمع الذي ينتج هذا البحث من أجله . وفي اللحظة التي ينطلق فيها صوت يتحدى مؤامرة الصمت هذه تصبح الأيديولوجية والأصول العرقية البعيدة هي الموضوع الرئيسي : فالباحث ماركسي !! أو انه فلسطيني ، او ايراني ، أو ... مسلم ، ... أو سوري ، ونحن نعرف من « هم » على هذه الشاكلة .

أما بالنسبة للمصادر نفسها فانها تعالج دائماً كأنها خامدة عاجزة ، ولذلك نجد أن الباحث ، حين يناقش مجتمعاً اسلامياً معاصراً ــ أو حركة أو شخصية ــ يشير الى ما تجري مناقشته بوصفه أساساً وقبل أي شيء ، دليلاً ، ومن النادر أن يشير اليه باعتباره جديراً بانسجامه الداخلي الخاص أو حقه في أن يجيب بنفسه .

ومن الجدير بالتنويه أنه لم تقم أبداً أية محاولة منظمة على أيدي الخبراء الغربيين المتخصصين بالاسلام تتناول منهجياً الكتابة الاسلامية عن الاسلام : هل هي بحث علمي ؟ هل هي دليل وبرهان ؟ هل هي لا هذا ولا ذاك ؟

ولكن يتم انتاج بعض المعرفة القيمة حول الاسلام ، برغم هذه الحالة القاحلة السائدة ، أو ربما بسببها ، وتتدبر بعض العقول المستقلة أمر عبور الصحراء . غير انه يظل ممكناً أن تُرد ، بصورة أساسية الهامشية الاجمالية وعدم التعلق الفكري الاجمالي « في مقابل الاجماع النقابي » والافلاس التفسيري الاجمالي لمعظم الكتابة عن الاسلام ــ لا كلها بأي حال من الأحوال ــ الى الشبكة العتيدة المؤلفة من

الشركات الكبرى والحكومة والجامعة التي تهيمن على العمل أجمع . وهذا في المحصلة ، هو ما يقرر الطريقة التي تنظر بها الولايات المتحدة الى العالم الاسلامي .

وإلا فلماذا (ان لم يكن لهذا السبب) استطاعت بنية للمعرفة عن الاسلام في مثل هذه الغرابة أن تتطور وتنمو وتزدهر متشابكة متداخلة كل هذا التداخل ، مرموقة مهيبة ، لا يزعزع مكانتها ما منيت به من فشل أثر فشل واخفاق بعد آخر ؟

وأفضل طريقة لفهم الصفة المعينة المحددة بدقة لهذه الرؤيا ، التي تمتلك قوة الإيمان غير القابل للتشكيك ، تكمن في مقارنتها ، مرة أخرى ، بالوضع القائم في بريطانية وفرنسة ، ذينك السلفين للولايات المتحدة في العالم الإسلامي . ففي كلا هذين البلدين كان دوماً يوجد كادر من الخبراء بالاسلام وبالطبع لهم باع طويل في لعب الأدوار الاستشارية في صياغة ــ بل حتى تنفيذ ــ السياسة الحكومية والتجارية سواء بسواء .

لكن في كلتا الحالتين كان هناك مهمة أخرى مستعجلة ينبغي القيام بها : ادارة الحكم في المستعمرات . كان هذا هو الوضع هناك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . فالعالم الإسلامي يعتبر سلسلة متميزة من المشكلات وكانت المعرفة بتلك المشكلات في مجملها وضيعة ومنخرطة انخراطاً فيها كذلك .

وكانت النظريات والتجريدات حول العقل الاسلامي ــ وفي فرنسة ، حول الرسالة الحضارية وفي بريطانية حول الحكم الذاتي للشعوب الخاضعة ــ تتسرب ، هنا وهناك ، في تنفيذ السياسة ، ولكن ذلك يحصل دائماً بعد أن تكون السياسة قد اتخذت مكانها وعلى الأرض ان جاز التعبير . وقد لعب الانشاء حول الاسلام ، أساساً ، دور تبرير الاهتمام القومي (أو حتى الاقتصادي الخاص) بالعالم الإسلامي ، ولهذا السبب نجد اليوم ، في فرنسة وبريطانية ، أن كبار دارسي تاريخ الاسلام والمختصين بمجالاته المختلفة هم في الأعم الأغلب شخصيات عامة ،

يكمن مبرر وجودهم ــ حتى في هذه الأيام وبعد انحلال الامبراطوريات الاستعمارية ــ في الحفاظ على اهتمام فرنسي أو بريطاني بالعالم الإسلامي. ويغلب أن يكون هولاء الباحثون، لأسباب عديدة، إنسانيي النزعة لا علماء اجتماع، ولا يقوم دعم الثقافة العامة لهم على أساس عبادة الخبرة ما بعد الصناعية (الموجودة فعلاً، في كلا البلدين) بل على أساس التيارات الأخلاقية والفكرية الواسعة المدى في المجتمع.

فمكسيم رودنسون على سبيل المثال في فرنسا هو من أساطين فقه اللغة «الفيلولوجيا» وهو ماركسي معروف. والبرت حوراني في بريطانية مؤرخ مرموق، وهو باحث تمثل اعماله ليبرالية واضحة. إلا أن مثل هؤلاء الأشخاص هم في سبيلهم الى الاختفاء وسيحل محلهم في المستقبل في كل من بريطانية وفرنسة علماء اجتماع على الطراز الأمريكي أو مختصون أثريون.

والباحثون المماثلون لهولاء في جامعات الولايات المتحدة غير معروفين إلا بوصفهم خبراء في الشرق الأوسط أو خبراء بالاسلام، فهم ينتمون الى طبقة الخبراء، ومن الممكن أن نعتبر مجالهم معادلاً فكرياً لإدارة الأزمة، بشرط أن يهتموا بالاتجاهات الاجتماعية الحديثة في عالم الاسلام اليوم. وهم يستمدون الكثير مما يتمتعون به من مكانة رفيعة ومن فكرة كون العالم الاسلامي يمثل للولايات المتحدة الأمريكية منطقة ذات أهمية استراتيجية تكمن فيها كافة أنواع المشكلات المحتملة ــ وان لم تكن الواقعية دوماً.

ومن المنطقي الطبيعي أن بريطانية وفرنسة كلتيهما قد أنتجتا، خلال العقود الكثيرة التي قضتاها في ادارة المستعمرات الاسلامية، طبقة من الخبراء الاستعماريين، ولكن هذه الطبقة لم تنتج بدورها ملحقاً لها يعادل شبكة التحالف بين الدراسات الشرق أوسطية والحكومة والشركات الأخطبوطية الكبرى الموجودة حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية.

فلقد قام أساتذة اللغة العربية أو الفارسية أو الخبراء بالمؤسسات الاسلامية

بأعمالهم في الجامعات البريطانية والفرنسية، عندما كانوا يستدعون للاستشارة أو حتى للاشتراك الفعلي المؤثر، من قبل الدوائر الاستعمارية ومن قبل مؤسسات الأعمال وشركات التجارة الخاصة. وكانوا، أحياناً، يعقدون المؤتمرات إلا أنهم، على ما يظهر، لم يخلقوا بنية مستقلة خاصة بهم يغذيها، بل يضمن ابقاءها على قيد الحياة قطاع الأعمال الخاص أو المؤسسات العامة أو الحكومة مباشرة.

ولذلك، يحدد الجغرافيون السياسيون والمصالح الاقتصادية في الولايات المتحدة معرفة العالم الإسلامي وتغطيته بمقياس هائل مستحيل ادراكه بالنسبة للفرد تدعمه وتعززه بنية لانتاج المعرفة، تكاد تبلغ درجته من الضخامة واستحالة الإستيعاب والتعامل.

ماذا يفعل دارس القبائل العربية أو قبائل دول الامارات الخليجية ازاء وجود شركة النفط، هذا الوجود الذي يقوم معترضاً بينه وبين تلك القبائل، ازاء الحديث عن قوات الانتشار السريع والتدخل والدعاية للجوء اليها في منطقة الخليج، [راجع الموضوع الافتتاحي في النيوز ويك « الدفاع عن حقول النفط » زيادة القوة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ ١٤ تموز — يوليو ١٩٨٠] ازاء الجهاز الكامل من الأيدي المختصة بالشرق الأوسط في وزارة الخارجية والشركات الكبرى والمؤسسات والعدد الضخم من كبار الأساتذة المستشرقين؟ وأي نوع من المعرفة من المتصور أن تكونه حقاً المعرفة بثقافة أخرى ان كانت مُلَقَّنَة ومحشوة على هذه الصورة بالالحاحات الفرضية لـ « هلال الأزمة » من جهة وبالانتماءات المؤسساتية المزدهرة بين البحث العلمي والأعمال والحكومة من جهة ثانية؟

سأختتم هذا القسم بمحاولة للإجابة في شقين عن السؤال بمنتهى الواقعية. أولهما، الظروف الراهنة والحقائق والأرقام التي تحكم ما يمكننا أن ندعوه بتغطية الاسلام بطريقة عمل سننية. سأركز على ما يجري في الولايات المتحدة وان تكن حالة شديدة الشبه قد بدأت تحل تدريجياً في أوربة. لقد ورد في مسح فرنسي مفيد حول المراكز الأمريكية للدراسات الشرق أوسطية أنه، في عام ١٩٧٠، قام حوالي

١٦٥٠ مختصاً في الشرق الأوسط بتعليم لغات المنطقة لـ ٢٦٥٩ طالبا من طلاب الدراسات العليا و لـ ٤١٥٠ طالباً من طلاب الشهادة الجامعية الأولى ــ أي بنسبة ١٢ ٪ و ٧,٤ ٪ على التوالي من المجموع العام لطلاب الدراسات العليا وطلاب الشهادة الأولى الذين يتخصصون في دراسة المناطق.

وقد التحق بالمساقات الخاصة بدراسات منطقة الشرق الأوسط ٦٤٠٠ طالباً من طلاب الدراسات العليا و ٢٢٣٠٠ طالباً من طلاب الشهادة الجامعية الأولى ــ أي ما يعادل ١٢,٦ ٪ من المجموع العام. ومع ذلك نجد أن عدد ما أنتج من شهادات الدكتوراه في الدراسات الشرق أوسطية، في السنوات الأخيرة، قد تضاءل نسبياً ــ فهو أقل من ١ ٪ من مجموع طلاب الدكتوراه في البلاد كلها. وقد جاء في الدراسة الثاقبة البصيرة التي أعدها ريتشارد نولت حول مراكز دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية ــ ومن المثير للاهتمام أن هذه المهمة قد أوكلت اليه من قبل شركة إسو للشرق الأوسط وهي فرع من شركة إكسون ــ ونشرت سنة ١٩٧٩، أن مكتب التربية يدعم دراسات المناطق « لتطوير خبراء ومختصين بسرعة وبأعداد كبيرة لتحقيق غايات الحكومة والشركات الكبرى والتربية ». وقد رضخت الجامعات لهذه النظرة. فنولت يعلق بحق:

« من وجهة نظر الجامعة يمكن اعتبار مراكز دراسات الشرق الأوسط آلية جديدة واعدة لتسويق الانتاج الجامعي ــ فهي لا تساعد في انتاج محصول اكثر تسويقاً فحسب ــ مختصون في المنطقة مدربون في فروع الدراسة المفيدة ومهنيون لتلبية حاجات أسواق جديدة ضخمة الامكانيات ــ وانما في خلق الأسواق أيضاً ».

ويقول حول برامج الماجستير في الجامعات الأمريكية:

« ان أسواق الحكومة والشركات الكبرى والمصارف وغيرها من الأسواق المهنية لحاملي شهادة الماجستير المدربين تدريباً ملائماً ذي بعد شرق أوسطي هي ناشطة نسبياً بفضل عوامل اقتصادية وسياسية متماثلة فيها جميعا ».

وكما كان للندوات الدراسية التي عقدتها ، وقد نبهت اليها آنفاً ، العون على تشكيل الاهتمامات الفكرية في المجتمع العلمي ، تؤثر حقائق السوق هذه أيضاً في المقررات الدراسية والبحثية . ويسلط أكثر التركيز في دراسات الشرق الأوسط على حقول مثل الشريعة الاسلامية والنزاع العربي ـــ الاسرائيلي . وأهميتهما المتعلقة بالموضوع واضحة للعيان من النظرة العابرة.. لكن يرافق ذلك التركيز اهمال الأدب ، حسبما يورد نولت ، وكذلك اهمال الجماعات الكبيرة العدد نسبياً من الطلاب الشرق أوسطيين الملتحقين بالجامعات الأمريكية ، اضافة الى ذلك ، يقول نولت ، إن رؤساء المراكز الذين قابلهم :

«ذكروا حوادث مورس فيها ضغط سياسي منظم نشأ من خارج حرم الجامعة غالباً لمنع النشاطات ذات الصلة العربية أو اضعاف الثقة فيها وتشويه قيمتها ، وهي نشاطات تعتبرها المراكز المختصة مشروعة ومرغوبة أكاديمياً . فالنشاطات الثقافية العربية وعروض الأفلام والمحاضرون الزائرون وقبول التبرعات العربية لدعم الميزانية كل شيء قد يصبح هدفاً .

وقد فرض الوعي بهذا الأمر كبتاً عاماً منتشراً يولد النفور عند غالبية الرؤساء ـــ وهم لا يستطيعون أن يتجاهلوه . وقد شعر بعض الرؤساء أن الأوضاع في تحسن ، ولكن بعضهم الآخر لم يكن واثقاً من ذلك» .

تفرض هذه الأشياء كلها ـــ السياسة والضغوط والأسواق ـــ نفسها على الاحساس بها بطرق متنوعة . وتنتج الحاجة الى الخبرة المهنية حول الشرق الأوسط المعاصر العديد من المساقات والعديد من الطلاب وتوكيداً بيناً على القبول بالمنظور النفعي للمعرفة والمحافظة عليها فهو مربح مادياً وممكن التطبيق الفوري على حد سواء . وتكمن نتيجة أخرى في أن الاستقصاءات المنهجية لا تتم أبداً، فالطالب الراغب في اتخاذ دراسات الشرق الأوسط مهنة سينفر رهبة قبل كل شيء من قضاء السنوات الطويلة الشاقة الضرورية للحصول على الدكتوراه [دون أن يكون على ثقة من حصوله على وظيفة تعليمية نتيجة ذلك] ولذلك فانه سيحوز على

ماجستير أو شهادة في الدراسات الدولية في موضوع جذاب في نظر كبار المستخدمين ـــ الحكومة وشركات النفط وشركات الاستثمار وشركات المقاولات ـــ والأغلب أخيراً أن ينجز العمل في أسرع وقت ممكن فيتخذ شكل دراسة عالية.

وكل ذلك يعزل دراسة الاسلام أو الشرق الأوسط عن التيارات الفكرية والأخلاقية الأخرى في المجتمع البحثي العلمي. وتبدو وسائل الاعلام أشبه بخشبة مسرح مليئة بالوعود، أفضل لعرض الخبرة المهنية عليها من عرضها، مثلاً، في مجلة فكرية عامة. وفي وسائل الاعلام، كما يعرف متابعوها، اما أن تكون متحزباً ـــ وهذا شيء مقيد في أضيق حدود ـــ أو أن تكون خبيراً رصيناً دعي دون تحيز لاصدار الأحكام حول الشيعة والعداء للولايات المتحدة. ويتضح بجلاء أن دور الخبير يدفع وضع صاحبه المهني قدماً، إلا اذا كان قد رسخ نجاحه في ميدان الأعمال أو في الحكومة.

قد يبدو ما تذكره معارضة ساخرة للكيفية التي تنتج بها المعرفة، الا أن ذلك يصف الى حد بعيد ما بلغته معرفة الاسلام من ضيق بالغ في التركيز وضآلة هزيلة مأساوية في المادة. وأهم من كل شيء انه يشرح لماذا يحجم الخبراء الأكاديميون المختصون في الاسلام كل الاحجام عن تحدي النماذج المنمطة المقولبة التي تنشرها وتعممها وسائل الاعلام، فقد تم تحييدها، كجماعة، في الدور الهامشي الوظيفي الفوري، بوصفها رموزاً مرتبة اجتماعية للسلطة المختصة والتي تمنح الثقة بمعرفتها بالاسلام، كما أنهم يعتمدون على النظام بأسره اذ هو يشكل وظيفتهم في داخله ويكسبها الشرعية وتعكس وسائل الاعلام هذا النظام عينه في اعتمادها على نماذج منمطة مقولبة تستند الى الخوف والجهل بآن واحد.

وان كان ما عرضته أعلاه يبدو مقيداً ومحدداً فكرياً ـــ وهو بالفعل كذلك ـــ فهو لا يمنع من انتاج كمية ضخمة من المواد حول الشرق الأوسط، والاسلام، وأجزاء أخرى من العالم، والعالم الثالث على وجه الخصوص، بكل تأكيد. أي أن علينا أن نتعامل مع ما يسميه ميشيل فوكو في غير هذا المقام بـ «التحريض

على الانشاء » . فالتنظيم الفكري للانشاء حول ثقافات بعيدة وغريبة يشجع انتاج المزيد من نوعه وعلى غراره بكل ايجابية وتوكيد ـــ وهذا يختلف أبعد الاختلاف عن الرقابة التدخلية البسيطة . وهذا هو السبب في استمراره وبقائه رغم ما يحدث في العالم من تغيرات ، وهذا هو السبب أيضاً في استمراره في جذب مزيد من الملتحقين بخدمته والمنتفعين مما يقدمه .

وفي الخلاصة الأخيرة نجد أن التغطية الراهنة للاسلام وللمجتمعات غير الغربية تقنن ، في الواقع ، أفكاراً ونصوصاً وسلطات معينة .

فنجد مثلاً أن الفكرة القائلة بأن الاسلام ينتمي الى القرون الوسطى ، وانه خطر ، قد اكتسبت موقعاً محدداً أدق تحديد في كل من الثقافة والسياسة : فبالامكان ذكر الثقافة كمراجع لهذه الفكرة بكل يسر ، كما يمكن ايراد المصادر لها ، ويمكن استنباط المقولات حول شواهد معينة في الاسلام منها ـــ ويقوم أي شخص بذلك ، وليس الخبراء أو الصحفيون فحسب . وتقوم مثل هذه الفكرة بدورها بتوفير ما يشبه المحك المسبق الذي ينبغي أن يحسب حسابه كل من يرغب في أن يبحث أو يقول أي شيء عن الاسلام . فالاسلام ـــ أو بالأحرى المادة التي ترتبط به دون فكاك ـــ يتحول من شيء موجود هناك في الخارج الى سنة وعادة لهذا المجتمع . فهو يدخل العادة الثقافية مما يجعل مهمة تغييره على غاية الصعوبة حقاً .

لنكتف بهذا القدر حول تغطية الاسلام بطريقة سنية تقليدية ، وهي التغطية التي تكسبها انتماءاتها إلى القوة ، متانة وصلابة وقوة احتمال وحضوراً ـــ وهو الأهم . غير أن هناك نظرة أخرى الى الاسلام تتداول ، وهي نظرة تنتمي الى فئة المعرفة التي يمكن أن تسميها المعرفة النقيضة .

ماذا أعني بالمعرفة النقيضة ؟

ان ما أعنيه ذلك النوع من المعرفة الذي ينتجه أناس يعتبرون بكل وعي منهم أنهم يكتبون معارضين للعادة المتبعة . وهم يفعلون ذلك لأسباب متفاوتة وفي ظل

أوضاع مختلفة ، .كما سنتبين ، غير أنهم بأسرهم يتمتعون بحس حاد بأن سبب دراستهم للاسلام وكيفية اجراء تلك الدراسة هما سؤالان يتطلبان التأمل والتفكير والافصاح الصريح . وعند هولاء المفسرين المناقضين يستبدل الصمت المنهجي للاستشراق ـــ الذي تكسوه ، عادة ، طبقات من الثقة المتفائلة بالموضوعية المجردة عن الحكم المعياري ـــ ببحث حثيث للمعاني السياسية للبحث العلمي .

وهناك ثلاثة أنواع أساسية للمعرفة النقيضة للاسلام ، تقوم بانتاجها في داخل المجتمع ثلاث قوى وهي في وضع يمكنها من تحدي السّنة القائمة . واحداها هي جماعة من الباحثين الأصغر سناً . فهم أميل الى أن يكونوا اكثر حذقاً واطلاعاً وأشد أمانة سياسياً ممن يكبرون سناً في هذا الحقل ، وهم يعتبرون العمل في حقل الاسلام ذا صلة ما بالأنشطة السياسية للدولة ولذلك فهم لا يتظاهرون بأنهم باحثون موضوعيون .

فحقيقة أن الولايات المتحدة منغمسة في سياسات عالمية يتعلق الكثير منها بالعالم الاسلامي ، ليست ، بالنسبة اليهم ، أمراً يجب السكوت عنه أو القبول به على أنه حقيقة حيادية . وهم ، بخلاف المستشرقين الأكبر سناً ، متخصصون لا معممون ، وقد رحبوا بالأدوات المنهجية المبتكرة على غرار علم الانثربولوجيا البنيوية ، والطرق الكمية ، والانماط التحليلية الماركسية ترحيباً مفعماً بالاهتمام الخالص وطبقوها تطبيقات ناجحة في أغلبها . ويظهر أنهم حساسون بصورة خاصة تجاه أشكال العصبية العرقية في الانشاء الاستشراقي ، كما لا ينتمي معظمهم ـــ بحكم صغر سنهم ـــ الى نظام الوصاية الذي يكسب الأعضاء الأكبر سناً في هذه المهنة المواقع الاجتماعية الرفيعة التي يحتلونها ـــ بل هم غرباء نسبياً عنه . وقد برز من بين صفوفهم « الندوة البديلة لدراسات الشرق الأوسط » ـــ آمس ـــ و « مشروع الشرق الأوسط للبحوث والاعلام » ـــ ميريب ـــ وهما منظمتان أنشئتا خصيصاً بهدف تجنب التواطؤ مع الحكومة وشركات النفط . وقد تشكلت جماعات مماثلة في أوربا وتقوم صلات بين الجانبين . ولا ينتمي كل الباحثين الأصغر سناً الذين أشير اليهم الى هذه الجماعات ولكن معظمهم مجددون في

أهدافهم . وكلهم دون تمييز يسعون الى تغطية الاسلام من منظورات أهملها من هم اكبر سناً منهم أو هم كانوا على جهل بها .

وتتألف جماعة ثانية من باحثين أكبر سناً يجري عملهم ، لأسباب عديدة اكثر من أن تلخصها بترتيب وتحديد ، في مسار مضاد للبحث العلمي السنني الذي يهيمن على هذا الحقل . ونذكر مثلاً حامد إلكار من جامعة بيركلي وينكي كيدي من جامعة أوكلا فهما باحثان من المختصين القلائل بايران الذين نظروا بعين الجد الى الدور السياسي الذي يقوم به رجال الدين في ايران ، قبل سنوات من قيام الثورة الايرانية . ويختلف إلكار عن كيدي أشد الاختلاف ، رغم أنهما كليهما قد أعربا عن شكوك لا يستهان بها بشأن استقرار النظام البهلوي . ويشبههما في ذلك ايرفاندا براهيميان من كلية باروك الذي وفرت دراساته للمقاومة العلمانية ضد الشاه سلسلة من نفاذ البصيرة الثابتة في الكشف عن ديناميات الثورة السياسية ، وهناك من هم أحدث عهداً مثل مايكل ج . فيشر من جامعة هارفارد وفريد هاليداي في انكلترة ، وكلاهما باحثان دفعتهما أسباب فكرية وأكاديمية سواء بسواء للابتعاد عن رأي الأغلبية حول ايران فكانت نتيجة ذلك أنهما أنجزا أعمالاً حول ايران المعاصرة تمتاز بقيمة استثنائية عالية المستوى .

ان ما يلفت الاهتمام بشأن هذه الجماعة من الكتاب المناقضين حول الاسلام أن من المتعذر اختزالهم الى أي تخصيص منهجي أو ايديولوجي ينصفهم ولو بعض الانصاف . غير أن الحقيقة المدهشة تكمن في أن أياً منهم ، على وجه التقريب ، لا ينتمي الى « المؤسسة » في الدراسات الشرق أوسطية . وليس معنى قولنا هذا أنهم ليسوا شخصيات مرموقة تتمتع بالاحترام والتقدير ، بل انهم كذلك ، إلا أن نفراً قليلاً منهم قد انخرط بنشاط وانتماء مؤسساتي في العمل كمستشارين لدى الحكومة والشركات الاخطبوطية — ولعل أياً منهم لم يفعل ذلك . وربما أن هذه الحقيقة قد حررتهم من أي التزام بالواقع الراهن فمكنتهم من رؤية أشياء أهملها الكتاب التقليديون حول الاسلام وتحاشوها . ولكن لا بد من القول عنهم وعن جماعة الباحثين الأصغر سناً الذين أشرت اليهم قبل، ان من الضروري أن يصبحوا

أشد علاقة بالسياسة في هذا المجتمع حتى يمكن لعملهم أن يحدث بالفعل التأثير القادر على احداثه بالقوة. فلا يكفي أن تكون لديهم آراء وتوجهات تميزهم عن الخبراء التقليديين بل ان عليهم أن يحاولوا اكساب آرائهم رواجاً ولأن مثل هذا الجهد سيتخطى بالضرورة عملية كتابة الأشياء وانجاز طباعتها تخطياً كبيراً، فان أمامهم صراعاً سياسياً وتنظيمياً طويلاً.

وأخيراً هناك جماعة من الكتاب والمفكرين من غير حاملي الشهادات كخبراء بالاسلام، ولكن دورهم في المجتمع يقرره موقفهم الكلي المعارض: انهم المناضلون ضد الحرب وضد الامبريالية، ورجال الدين المنشقون، والمفكرون والأساتذة المتطرفون، ومن هم على غرارهم. وتكاد نظرة هؤلاء الى الاسلام أن تكون مبتورة الصلة بحكمة المستشرقين وان يكن بعضهم قد تأثر بالاستشراق الثقافي المنتشر في كل مكان في الغرب. غير أن عدم الثقة والنفور والكراهية الثقافية تجاه الاسلام يلطفها ويعدلها شعور حاد أقوى منها تجاه الامبريالية وما هي عليه ـ ويمكن هنا أن نأخذ أ. ف. ستون شاهداً ـ وازاء المعاناة الانسانية وما هي عليه، كائناً من كان الذي يرزح تحت وطأتها ـ يهوداً أم مسلمين أم مسيحيين ـ ولقد تفرد ستون في التنبؤ بعواقب استمرار دعم الولايات المتحدة للشاه بعد الثورة وكان هو ومن هو على شاكلته، وليس الخبراء الحكوميون أو الأكاديميون، هم الذين نادوا بسياسة تفاهم تجاه النظام الثوري.

والأمر المؤثر فيما يقوم به هولاء الناس هو أنهم، رغم افتقارهم الى الشهادات كخبراء، فانهم يفهمون ديناميات معينة في نطاق عالم ما بعد الاستعمار، ومن ثم في نطاق أجزاء واسعة من العالم الاسلامي. والخبرة الانسانية بالنسبة اليهم هي ما يعين وحدة الاهتمام ولا تعينها دفعات مقيدة محددة مثل: «العقل الاسلامي» أو «الشخصية الاسلامية» وعلاوة على ذلك هم مهتمون اهتماماً أصيلاً بالتبادل وقد أصبح اجتياز الخطوط العدائية الصارمة التي تضعها الحكومات فاصلة بين الشعوب قضية اختيار واع يتبنونه، ويتبادر الى الذهن في هذا الصدد المثال البارز لرامسي كلارك في ذهابه الى طهران والدور الباسل الذي لعبه ابان

أسوأ أيام الأزمة الايرانية، أفراد مثل ريتشارد فولك ووليام سلون كوفين الابن ودون لوس والعديدون غيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم كما لعبته منظمات أيضاً مثل «فرندز سرفيس كوميني» و «كليرجي أند ليني كونسرند» ومن حذا حذوهما من الجماعات.

وعلينا أن نشمل بالاضافة الى ذلك وكجزء من هذه التشكيلة المنشقة مختلف المطبوعات ومنظمات الأخبار البديلة ونذكر منها: سفن لمايز، ومذر جونز، وان ذيس تايمز، والجارديان، والباسفيك نيوز، وكريستشيانيتي أند كرايز، وقد فتحت صفحاتها وشرّعت مصادرها للآراء المعارضة حول ايران وحول الاسلام ــ وان يكن ذلك أقل وروداً، للأسف. وتتكرر الظاهرة عينها في أوربة.

الأمر الأكثر أهمية برأيي حول هذه الجماعات الثلاث هو أن المعرفة بالنسبة اليها هي، في جوهرها الأساسي، شيء يسعى اليه بنشاط ايجابي دائب ويناضل من أجله لا مجرد انشاء ترددي سلبي للحقائق والآراء المقولبة. والصراع بين هذه النظرة في تأثيرها في الثقافات الأخرى وتجاوز ذلك للتأثير في المسائل السياسية الأوسع، وبين المعرفة المتخصصة المؤسسية التي تفرزها القوى المتسلطة في المجتمع الغربي المتقدم يشكل فاتحة عهد جديد.

فهو يتسامى كثيراً عن مسألة ما اذا كانت وجهة النظر مؤيدة أو معارضة للإسلام أو عما اذا كان المرء محباً للوطن أو خائناً. ومع تقارب عالمنا من بعضه وتوثيق صلاته ستبدو السيطرة على الموارد النادرة والمناطق الاستراتيجية والأعداد السكانية الهائلة مرغوبة وضرورية اكثر. أما المخاوف التي ترعى وتعزز بعناية من الفوضى والاضطراب فستتبع توحداً في الآراء والنظرات والمزيد من عدم الثقة فيما يختص بالعالم الخارجي وينطبق ذلك على العالم الاسلامي انطباقه على الغرب.

وفي مثل هذا الزمان سوف يلعب انتاج المعرفة ونشرها دوراً حاسماً حسماً مطلقاً. غير انه حتى يحين وقت تفهم فيه المعرفة في أطر انسانية وسياسية بوصفها شيئاً يجب أن يربح في خدمة التعايش والتشارك لا في خدمة أجناس أو أمم أو طبقات أو أديان، يبقى المستقبل ينذر بالتشاؤم.

٢ ــ المعرفة والتفسير

كل معرفة تتناول المجتمع الانساني، وليس العالم الطبيعي، هي معرفة تاريخية لذا فهي تقوم على الأحكام والتفسير. وليس معنى ذلك أنه لا وجود للحقائق أو المعطيات وانما يشير الى أن الحقائق تستمد أهميتها مما يسبغه التفسير عليها، فليس هناك من يجادل في حقيقة كون نابليون قد عاش حقاً وكان امبراطور فرنسا، إلا أن هناك وفرة هائلة من الخلاف التفسيري حول ما اذا كان أحد حكام فرنسا الكبار أو أنه من حكامها الذين جلبوا اليها الكوارث والمحن. ومثل هذا الخلاف يشكل مادة تقوم عليها سلسلة من الكتابات التاريخية، كما انّه المادة التي تستمد منها المعرفة التاريخية. لأن التفاسير تعتمد اعتماداً كبيراً على من يقوم بها وعلى من يخاطبهم هذا المحلل وعلى ما ينشده هدفاً لتفسيره وعلى اللحظة التاريخية التي يتم التفسير أثناءها. وبهذا المعنى تكون جميع التفاسير وضعية: أي انها تحصل دائماً في وضع له تأثير انتمائي على التفسير فهي تتصل بما سبق أن قاله مفسرون آخرون، فاما أن تتوافق مع أقوالهم أو تعارضها أو تتابعها وتنقحها وتضيف اليها وتعدلها. فلا وجود لتفسير بدون تفاسير سبقته أو بدون رابطة ما تربطه بغيره من التفاسير.. من هنا فلا بد أن يطلع أي كاتب جدي يتناول الإسلام أو الصين، أو شكسبير، أو ماركس، على ما سبقه من كتابات تناولت هذه الموضوعات، حتى ان كان الهدف الوحيد لمثل هذا الاطلاع يكمن في عدم رغبة المفسر في أن يكون منبتاً عما سبقه أو مكرراً له دون اضافة. وما من كتابة على درجة من الجدة بحيث يمكن اعتبارها أصيلة كلية، ولا من الممكن أن تكون مثل هذه الكتابة، ذلك أن من يتناول المجتمع الانساني ليس كمن يشتغل بالرياضيات ومن هنا فليس في مكنته أن يتشوق لبلوغ الأصالة الجذرية الممكنة أو المتاحة في ذلك النشاط.

وبناء عليه فان معرفة الثقافات الأخرى تخضع خاصة الى عدم الدقة «غير العلمية» والى الظروف التي تكتنف التفسير. ورغم ذلك يمكننا أن نقول مبدئياً إن معرفة ثقافة أخرى هي ممكنة ومن المهم أن نضيف انها مستحبة اذا تحقق

شرطان ـــ وبالمناسبة فإن هذين الشرطين لا تستوفيهما مجمل الدراسات الشرق أوسطية أو الاسلامية الراهنة.

أول هذين الشرطين ان يشعر الدارس انه مسؤول تجاه الثقافة أو الشعب موضوع الدراسة وأن اتصاله بهما لا يقوم على القسر أو الاكراه. وكما سبق أن ذكرت، فقد عرف الغرب معظم ما عرفه عن العالم غير الغربي في اطار الاستعمار وعليه فقد قارب الباحث الغربي موضوعه من موقع عام سائد مهيمن، وقال ما قاله عن هذا الموضوع مشيراً الى اشارات طفيفة إلى ما أورده باحث ما من غير البحاثة الأوربيين. وبسبب ما عددته من الأسباب الوفيرة في هذا الكتاب وفي كتابي السابق عن الاستشراق فان معرفة الاسلام والشعوب الاسلامية نشأت وترعرعت لا من الهيمنة والمواجهة فحسب وانما من الكراهية الثقافية أيضاً. ونجد اليوم أن الإسلام يعرف تعريفاً سلبياً على أنه في موقع التناقض الجذري مع الغرب وينبثق من هذا التوتر اطار يحد جذرياً معرفة الاسلام. وما بقي هذا الاطار قائماً لا يمكن أن يعرف الاسلام بوصفه خبرة حيوية واقعية يحياها المسلمون. ويصح هذا القول بصورة خاصة، للأسف الشديد، على الولايات المتحدة ولا تقل صحة ذلك عن أوربة الا قليلاً.

والشرط الآخر مكمل ومتمم للأول. إن معرفة العالم الاجتماعي، في مقابل معرفة العالم الطبيعي، هي في الأساس ما درجت على تسميته بالتفسير: فهي تكتسب مكانة المعرفة بوسائل متنوعة، بعضها فكري، وأكثرها اجتماعي بل سياسي. فالتفسير أولاً وقبل كل شيء شكل من أشكال الصناعة: أي أنه يعتمد على النشاط الارادي القاصد الواعي الذي يقوم به العقل الانساني، مقولباً ومكوناً الأشياء التي يهتم بها بعناية ودراسة، ويتم مثل هذا النشاط، بالضرورة، في زمان محدد ومكان محدد، وينهمك في أدائه شخص محدد المكان ذو خلفية خاصة وفي وضع خاص تحقيقاً لعدد من الغايات الخاصة المحددة. وبناء على ذلك فإن تفسير النصوص وهو ما تقوم عليه أساساً معرفة الثقافات الأخرى لا يحدث في مختبر محصن بالأمان كما انه لا يدعي لنفسه صفة النتائج الموضوعية. بل هو نشاط

اجتماعي من غير المتاح أن نفصم ارتباطه بالوضع الذي نشأ فيه أولاً ، والذي من المحتمل أن يسبغ عليه فيما بعد مكانة المعرفة أو يلفظه بوصفه غير جدير بتلك المكانة . ومن غير الممكن لأي تفسير أن يهمل هذا الوضع ولا يكتمل أي تفسير من غير تفسير الوضع . ولا يخفى أن ازعاجات غير علمية على غرار العواطف والعادات والأعراف والتقاليد والتداعيات والقيم تشكل جزءاً أصيلاً من كل تفسير . فكل مفسر هو قارىء ولا وجود لقارىء حيادي أو خالٍ من القيم . وبكلمات أخرى كل قارىء هو أنا خاصة وعضو في مجتمع تربطه كافة أنواع الارتباط بذلك المجتمع . وعلى المفسر الذي يعمل ضمن العواطف القومية كحب الوطن والعواطف الخاصة كاليأس أن يسعى بطريقة منتظمة الى توظيف العقل والمعلومات التي حصل عليها عن طريق التربية الرسمية حتى يتحقق الفهم أولاً . ولا بد من بذل مجهود كبير لاختراق الحواجز القائمة بين وضع معين هو وضع المفسر ، ووضع آخر ، هو الوضع الذي كان سائداً في زمان ومكان انتاج النص . ان هذا الجهد الارادي الواعي لتخطي المسافات والحواجز الثقافية هو بالتحديد ما يتيح امكان معرفة المجتمعات والثقافات الأخرى كما انه يحد تلك المعرفة في نفس الوقت . ففي تلك اللحظة يفهم المفسر ذاته ضمن وضعه الانساني الخاص كما يفهم النص ضمن علاقته بالوضع الانساني الذي نشأ منه . ومن غير الممكن أن يحصل مثل هذا الا نتيجة لوعي الذات الذي يبعث وعياً بما هو بعيد وغريب ولكنه انساني رغم ذلك . ولا حاجة للقول ان هذه العملية برمتها واهية الصلة جداً بـ « المعرفة الجديدة والمختلفة تماماً » التي يشير اليها المستشرق التقليدي و بـ « فروع الدراسة » ذات التصحيح الذاتي التي يقوم بها البرفسور بيندر .

بقي أمر آخر لا بد من ايراده في هذا الوصف الأقرب الى التجريد للعملية التفسيرية التي تحصل ، عند انتهائها ، المعرفة — وهي ليست شيئاً ثابتاً مستقراً على الاطلاق . لا وجود اطلاقاً للتفسير والفهم ومن ثم المعرفة إلا حيثما يتوفر الاهتمام والمصلحة . وقد يبدو قولي هذا اكثر الحقائق البديهية شيوعاً ، إلا أننا نجد أن هذه الحقيقة الواضحة نفسها هي التي جرت العادة على تجاهلها أو انكارها . فانصراف باحث أمريكي الى قراءة رواية عربية أو يابانية معاصرة وفك رموزها يتطلب نوعاً

من الالتزام بشيء غريب يختلف تماماً عن التزام الكيميائي بفك رموز معادلة كيميائية. فليست العناصر الكيميائية ذات تأثير محلي داخلي كما أنها لا تثير أية عواطف انسانية وان كان ما لا ريب فيه أنه حتى هذه العناصر قد تفجر تداعيات عاطفية لدى العالم لأسباب خارجية بحتة. لكن العكس هو الصحيح فيما يمكن تسميته بالتفسير الانساني الذي يبدأ حقاً كما يقول العديد من المنظرين في وعي المفسر لتحيزه في الاحساس باغتراب النص موضوع التفسير الى ما هنالك. وكما كتب هانس جورج غادامير يقول:

«يكون من يحاول أن يفهم أحد النصوص كامل العدة لتلقي ما يخبره هذا النص به. ولهذا السبب يجب أن يكون العقل المدرب على التفسير والتأويل رهيفاً منذ البداية تجاه ما يحويه النص من جدة. وهذا النوع من الرهافة لا يتطلب الحياد بالنسبة لمادة الموضوع ولا الغاء ذات المفسر لكنه يتطلب أن يتمثل المفسر تمثلاً واعياً معانيه القبلية الخاصة وتحيزاته.

وأهم ما في الأمر وعي المفسر ــ أو المحلل ــ لانحيازه الخاص، لأن هذا من شأنه أن يتيح للنص مجال أن يعرض نفسه بكل ما يحمله من جدة، مما يمكنه من توكيد حقيقته الخاصة في مقابل المعاني القبلية التي يمتلكها المفسر».

وبناء عليه، يكون أول ما ينبغي الوعي به لدى قراءة نص من انتاج ثقافة غريبة، هو بعده، والشرط الرئيسي في هذا البعد الزمكاني هو ببالغ الحرفية وجود المفسر في زمانه ومكانه هو. والمقاربة التي يعتمدها الاستشراق السنني تقوم على معادلة البعد بالسلطة وعلى تضمين غرابة ثقافة بعيدة في البلاغة السلطوية للانشاء البحثي الذي يحتل مكانة المعرفة الاجتماعية الرفيعة الشأن دون أي اعتراف بما تطلبته تلك الغرابة من المفسر، ولا أي اعتراف ببنية القوة التي يسرت للمفسر انجاز مهمته. ما أود أن أشير اليه هو ببساطة أننا نكاد نفتقد أي كاتب حول الاسلام في الغرب اليوم يعترف صراحة بحقيقة أن الاسلام يعتبر ثقافة عدوة أو أن

أي قول حول الاسلام يصدر عن باحث محترف يقع في منطقة الشركات الكبرى والحكومة وكلتاهما تلعبان بدورهما دوراً كبيراً جداً في جعل التفاسير ومعرفة الاسلام مرغوبة وفي خدمة المصلحة الوطنية. وفي مقالة ليونارد بيندر التي حللتها أعلاه شاهد نموذجي على ما قلنا: فهو يذكر هذه القضية ثم يمسحها ويتجاهلها في جملة تمجد الاحتراف و «فروع الدراسة» ذات الوظيفة الجماعية التي تعتبر طريقة فعالة في طرد كل ما يزعج قناع الموضوعية العقلانية الذي تتستر خلفه. وهذا مثل من المعرفة المقبولة اجتماعياً التي تمحو الخطوات التي اتخذت في انتاجها.

والاهتمام بوصفه أحد جوانب التفسير يمكن أن نوضحه بتوسع أكبر وبالمزيد من الأدلة الملموسة. فلا أحد يعثر عن طريق المصادفة بالاسلام أو الثقافة الاسلامية أو المجتمع الاسلامي ببساطة بل ان المواطن في دولة صناعية غربية اليوم يلتقي بالاسلام بفضل الأزمة النفطية السياسية أو الاهتمام الحاد الذي توليه اياه وسائل الاعلام أو التقليد العتيد للتعليقات الخبيرة حول الاسلام في الغرب. ولنضرب مثلاً حالة مؤرخ شاب يرغب في التخصص في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. فهو يتقدم الى دراسة موضوعه ذاك وتلك العوامل الثلاثة تفعل فعلها، فتقوم كلها بقولبة الوضع الذي تدرك فيه الحقائق أي ما يفترض انه معطيات خام.

ونكاد نجد في كل لحظة خلال السنوات القليلة الماضية أدلة لا يستهان بها متوفرة للجميع، تشير الى أن العالم غير الغربي على العموم، والاسلام على وجه التخصيص، لم يعد يتوافق ويتطابق مع الأنماط التي حددها بدقة علماء الاجتماع الاميريكيون أو الاوربيون، والمستشرقون وخبراء المناطق في السنوات التي تلت الحرب مباشرة. ومن المؤكد حقاً أن العالم الاسلامي ككل ليس معادياً للولايات المتحدة ولا للاتحاد السوفياتي كلية، كما انه ليس موحداً ولا يمكن التنبؤ باتجاهاته أو اعماله. ومعنى ذلك هو انبثاق حقائق واقعة جديدة وغير منتظمة في العالم الاسلامي ويصح القول أيضاً أن أوضاعاً غير منتظمة مماثلة تقلق سكون الاوصاف النظرية الناتجة في السنوات السابقة قد انبثقت في أجزاء أخرى

من عالم ما بعد الاستعمار. ومجرد اعادة توكيد المعادلات القديمة حول التخلف والعقلية الأفريقية الآسيوية أمر سخيف فعلاً، أما الربط ربطاً سببياً بين تلك المعادلات والأفكار الخاصة بانحطاط الغرب وانتهاء الاستعمار وتناقص القوة الأمريكية المؤسف، فهو السخف بعينه وينبغي أن يؤكد ذلك أشد التوكيد.

وليس هناك طريقة تيسر لنا أن نجعل مجتمعات تبعد آلاف الأميال عن الأطلس مكاناً وهوية تتطابق مع ما نريده نحن منها. ونستطيع اعتبار ذلك حقيقة حيادية من غير أن نعتبرها شيئاً حسناً. ومهما يكن الأمر يكمن الخطر في التحدث عن خسارة ايران وانحطاط الغرب في نفس واحد، في أننا نغلق فوراً اغلاقاً مسبقاً امكان معظم المسارات العملية ما عدا صعود الغرب الذي أحرزه خبراء يبدون أسفهم بانتهاء الهيمنة البريطانية أو الأمريكية أو الفرنسية في العالم الاسلامي. وهذا يمثل شهادة مرعبة على ما قد يكون قابعاً في عقول صناع السياسة وعلى ما يخدمه هؤلاء الخبراء في الحقيقة من حاجات متأصلة عميقة للعدوانية واعادة الغزو والاحتلال. أما وجود مواطنين أصليين مطاوعين يعزفون في الجوقة نفسها فمرده الى التاريخ الحاث للتعاون ولا يعتبر علامة على نضج جديد في العالم كما يدعي البعض.

ليس الاسلام ما يقال انه هوعموماً في الغرب، الا لاغراض الغزو. ويجب علينا أن نوفر بديلاً فورياً. فان كان الاسلام يخبرنا بما هو أقل بكثير مما يجب أن يخبرنا به فأين وكيف نبحث عن المعلومات التي لا تبعث أحلاماً جديدة بالقوة ولا مخاوف وتحيزات سرمدية؟

لقد ذكرت بعض أنواع البحث والمتابعة ذات الفائدة الكبرى في هذا الصدد بل لقد وصفتها باسهاب أحياناً كما أنني قلت ان هذه الأنواع جميعا تنطلق من فكرة أن كل معرفة هي تفسير وأن من الضروري أن يتصف التفسير بالوعي الذاتي في أساليبه وأهدافه ان أراد أن يكون يقظاً وانسانياً وان شاء ان يصل الى المعرفة. غير انه ثمة اختيار يقبع في أساس كل تفسير للثقافات الأخرى ـــ خاصة

الإسلام ـ على كل فرد باحث أو مفكر أن يواجهه ذلك هو هل يضع العقل في خدمة السلطة أو يضعه في خدمة النقد والمجتمع والحس الأخلاقي ؟

وينبغي أن يكون هذا الاختيار أول عمل من أعمال التفسير اليوم ويجب أن ينتج عنه قرار وتصميم لا مجرد التأجيل ـ وان يكن تاريخ المعرفة بالاسلام في الغرب قد ارتبط أوثق ارتباط بالغزو والهيمنة فقد آن الأوان أن تفصم هذه الروابط فصماً تاماً . وان لم نفعل ذلك فلن نواجه توتراً ممتداً فحسب بل اننا نوفر للعالم الاسلامي امكانات حروب عديدة ومعاناة من الصعب أن نتخيلها واضطرابات مأساوية ولن يكون أقلها شأناً ولادة اسلام كامل الاستعداد ليلعب الدور الذي اعدته له السننية وردود الفعل واليأس . وهذا الاحتمال ليس ساراً حتى لو اخذنا في الحسبان المعايير الاكثر تفاؤلاً .

فهرس

صفحة